الإسلام والنظام العالمي الجديد

تأليف

مولاى محمد على

رئيس الرابطة الأحمدية لإشاعة الإسلام بلاهور

ترجمة

أحمد جوده السحار

يطلب من :

مكتبة مصر ومطبعتها

٦٣ شارع الفجالة — تليفون ٥٨٩٢٠

الشيء الصغير	الفونس دوديه
ملك من شعاع	عادل كامل
الفرعون الموعود	على أحمد باكثير
ابرهيم الكاتب	ابرهيم عبد القادر المازنى
هتاف الجماهير	أمين يوسف غراب
سعد بن أبي وقاص	عبد الحميد جوده السحار
تحليل النفس	محمود محمود
مسرحية الأب	أوجست ستر ندبرج
خان الخليلي	نجيب محفوظ
شيلوك الجديد	على أحمد باكثير
الكأس السابعة	صلاح ذهنى
مسرحيات يوربديز	محمود محمود
همزات الشياطين	عبد الحميد جوده السحار
الإمام على	عبدالفتاح عبد المقصود
طفل من القرية	سيد قطب
ليلة النهر	على أحمد باكثير
الاسلام ونظام العالم الجديد	مولاى محمد على

ت الطبع :

الدهاة الثلاثة	عمر أبو النصر
سر الحاكم بأمر الله	على أحمد باكثير
القاهرة الجديدة	نجيب محفوظ
نفوس مضطربة	أحمد زكى مخلوف
أبناء أبي بكر الصديق	عبد الحميد جوده السحار

لجنة النشر للجامعيين

أحمس	عبد الحميد جوده السحار
رادوبيس	نجيب محفوظ
أبو ذر الغفارى	عبد الحميد جوده السحار
قنابل	محمود تيمور بك
أخناتون ونفرتيتى	على أحمد باكثير
ثلاثة رجال وامرأة	ابراهيم عبدالقادر المازنى
أقاصيص	لنخبة من الأساتذة
سلامة القس	على أحمد باكثير
ويك عنتر	عادل كامل
بلال مؤذن الرسول	عبد الحميد جوده السحار
ع الماشى	ابراهيم عبد القادر المازنى
حديقة أبى العلاء	كامل كيلانى
كفاح طيبة	نجيب محفوظ
خريف امرأة	ابراهيم المصرى
قصر الهودج	على أحمد باكثير
عشاق العرب	كامل محمد عجلان
مليم الأكبر	عادل كامل
فى الوظيفة	عبد الحميد جوده السحار
محمد رسول الله	مولاى محمد على
عطر ودخان	محمود تيمور بك
وا إسلاماه	على أحمد باكثير
الأطياف الأربعة	الإخوة الأربعة
مرايا الناس	السيدة وداد سكاكينى

مقدمة

قد ينجم الخير عن الشر ، وقد يكون دمار الحرب الحالية وبؤسها المروعان فاتحة عهد سعيد للجنس البشرى ، ففى ديسمبر من عام ١٩٤٢ كتبت ، وهذا الأمل يراود نفسى، رسالة باللغة الأردية عنوانها «نظام العالم الجديد» ، فجاءنى من العراق بعد ذلك ببضعة أشهر اقتراح يقول بوجوب ترجمة تلك الرسالة عينها إلى اللغة الإنجليزية ، حتى لا تحرم الشعوب الناطقة بها من الانتفاع بما جاء فى تلك الرسالة ، ومهد لى ذلك أن أتناول الموضوع من جديد ، وأتيح لهذا الكتاب حظ الظهور نتيجة لذلك . وإذا قدر لهذه الآراء الواردة بين دفتى هذا الكتاب أن تكون ذات أثر فعال فى تحسين حال الجنس البشرى ، فيجب ألا يعود هذا الفضل الإنسانى إلى شخص المؤلف ، بل إلى تلك الفئة المتحدة من ذوى الإيمان والإيثار ، الذين جعلوا من الممكن نشر هذه الآراء وترويجها . ولذا فإنى أحب أن أتحدث قليلا عن « الرابطة الأحمدية لإشاعة الإسلام بلاهور » .

أنشأ أحمديو لاهور فى عام ١٩١٤ رابطة أطلقوا عليها اسم : الرابطة الأحمدية لإشاعة الإسلام بلاهور ؛ وكان رصيد الرابطة عند بدء تأسيسها ٧٠٠٠ روبية ، وصلت إلى ٤٣٥٠٠٠ روبية فى

« إنْ يَشَأْ يُذْهِبكُمْ وَيأْتِ بِخَلْقٍ جَديد »

« قرآن كريم »

المراجع الأصلية ، فكل إشارة ترد بدون ذكر الاسم تكون من القرآن الكريم . ويشير الرقم الأول إلى رقم السورة ، والرقم الثانى إلى رقم الآية ، وفى حالة الإسناد إلى كتب الحديث فإن الحروف (ب) يشير إلى البخارى و (م) إلى مسلم و (م ش) إلى المشكاة و (ا د) إلى أبى داود و (ت ر) إلى الترمذى و (ا ح) إلى مسند أحمد ، ويشير الرقمان فى الحالة الأخيرة إلى رقم المجلد ورقم الصفحة .

وإذا كان القارىء يرغب فى دراسة أوفى عن هذه الموضوعات أو غيرها مما يتعلق بالإسلام ، فليرجع إلى كتابى الكبير « دين الإسلام » ، فهو يلم بكل قوانين الإسلام ، وأصول الفقه إلماما دقيقاً .

وقبل أن أختم هذه المقدمة القصيرة ، لا يفوتنى أن أوجه شكرى إلى أعضاء « الرابطة الأحمدية لإشاعة الإسلام بلاهور » ، الذين ساهموا فى إصدار هذا الكتاب فى هذه الأيام العصيبة ؟ .

محمد على

العام التالى . وما انقضى على تأسيسها ثلاثون عاما حتى كانت قد تضاعفت ستين ضعفاً ، وقد أدت الرابطة للإسلام فى هذه السنوات أجل الخدمات ، فقامت بترجمة القرآن إلى أربع لغات هى : الإنجليزية ، والألمانية ، والهولندية ، والأردية . وطبعت من هذه التراجم أكثر من خمسين ألف نسخة ، وترجمت سيرة النبى الكريم إلى أكثر من سبع عشرة لغة ، منها ست أوروبية ؛ وترجمت كثيراً من كتب الفقه التى تشرح تعاليم الإسلام إلى ثلاثين لغة ، كما وزعت بدون مقابل أكثر من عشرة آلاف نسخة من الترجمة الإنجليزية للقرآن ، وأكثر من ١٥٠٠٠ نسخة من ترجمة سيرة النبى العظيم ، وما يزيد على خمسين ألف نسخة من كتب الفقه وأصوله . وأرسلت البعثات التى تعمل على نشر الإسلام إلى كثير من الأمصار والأقطار . وشيدت مسجداً عظيما فى برلين ، وعلاوة على ذلك فإنها أرصدت فى ميزانيتها فى ديسمبر من عام ١٩٤٣ مائة ألف روبية لإنشاء مؤسسة جديدة لترجمة القرآن الكريم إلى سائر لغات العالم . وتملك الرابطة مدرستين عاليتين أيضاً . وعقاراً يساوى فى الوقت الحاضر أكثر من عشرين مليوناً من الروبيات .

قد حاولت فى هذا الكتاب « النظام العالمى الجديد » ، أن أصف العلاج الناجع لتلك الأدواء التى أتت بها المادية فى ركابها ، وهو بحث قصير من غير شك ، إلا أنه مدعم بالإشارات إلى

الفصل الأول

أسس النظام الجديد

تواجه الإنسانية الآن أعظم كارثة وأعنف محنة نزلت بها إلى اليوم ، ومع أن آثار الأهوال الدامية التي سببتها الحرب العالمية الأولى ما تزال عالقة بأذهان السواد الأعظم من البشر ، فإننا نرى ، ولما تنقض سوى فترة قصيرة مقدارها عشرون سنة ، الكرة الأرضية وهي تصطلي من مشرقها إلى مغربها بنيران الحرب العالمية الثانية ، وبينا لا نلمح أي بادرة عن خبو هذا الضريم المتأجج ، إذا بنا نلمح تباشير حرب ثالثة تبدو في الأفق : ومن يدري فقد يكون من نصيب هذه الدنيا حرب رابعة أو خامسة أشد هولا من سابقتيهما. أهذه الحروب هي الدروب التي تؤدي إلى نظام عالمي أفضل لهذا العالم ؟.

هذا ما يؤمله كل مؤمن بحكمة الله . أما من لا يؤمن بالله ، فإنه يرى في هذه النكبات المروعة بداية انقلاب خطير . ومن الثابت الجلي أن ما يحدث اليوم إنما يسير وفق مشيئة إلهية ، تخطو بالإنسانية في خطوات متتالية نحو ما تهدف إليه من الكمال .

إن الصيحة بنظام عالمي جديد أصبحت عامة ، خصوصاً في العالم الغربي ، الذي كان حتى اليوم تحت تأثير اعتقاد جازم بأنه بتقدمه المادي المطرد ، وبعدم تفكيره في عاديات الدهر ، قد بلغ

فى طمأنينة وأمان ، إذا كانت تحد بلادهم حدود إقليمية خاصة ، إلا أن الدولة نفسها لا يمكن أن يهدأ لها بال ، فقد تجتاحها فى أى وقت من الأوقات دولة أخرى تفوقها فى القوة ، وفى وفرة معدات القتال ، وربما لا يُقر الظلم فى حدود البلد الواحد ، إلا أنه ليس ما يمنع دولة من أن تظلم دولة أخرى . وقد ينجح نظام اجتماعى خاص فى أن يحد من أطماع الأفراد ، ولكن مامن شيء يستطيع أن يحد من أطماع دولة ما ، غير أطماع دولة أخرى أقوى منها وأعز جانباً . فالشر يعد من الفضائل إذا لبس ثوب الوطنية .

انقسمت الإنسانية إلى شعوب وأجناس يكره بعضها بعضاً ويعمل كل منها للقضاء على الآخر ووضع العراقيل فى طريقه فى أثناء تسابقها إلى الرقى وتنافسها للحصول على المزيد من القوة والرخاء المادى والثراء الدنيوى . شعوب متنافرة لايجمعها أى رابط أدبى والمسئول المسئول عن هذه الفوضى التى تضرب فيها أطنابها ، هو هذه المدنية المادية الغربية التى جعلت التكالب على الثروة أسمى أغراض الحياة .

ومن الجلى أن المادية التى تؤجج نيران الطمع البشرى لن تجلب غير التعاسة والدمار — كما فعلت فى هاتين الحربين العالميتين — مالم توجد قوة ما تعمل على توحيد الجنس البشرى . ومثل هذه القوة إنما لا تكون إلا روحية . وهذه القوة الروحية لاوجود لها فى عالم الغرب المادى الذى هو بمثابة المركز الرئيسى للاضطرابات

حد الكمال ، ولكن أحداث الثلاثين عاماً الأخيرة ، أثرت تأثيراً بالغاً فى هذا الاعتقاد .

إن هذا الرقى المادى الذى كان مفروضاً فيه أن يكون مصدر سعادة دائمة للجنس البشرى ، لم يجلب غير التعاسة البالغة ، والخراب الشديد . فما يزال العالم فى حال من الفوضى الأولى ، وما تزال الشعوب الضعيفة مغلوبة على أمرها ، تفترسها الدول القوية الباطشة ، وضاعت روح الحق والباطل بين جميع دول العالم ، وأصبحت روح التوسع والاستعمار هى التى تسيطر على العالم من أقصاه إلى أقصاه . القوة هى صاحبة الحق ، كما كانت فى عهود الهمجية الأولى ، وبدلا من أن يجد العالم نفسه فى أوج كماله تبعاً لخطواته المادية العظيمة ، وجد نفسه ما يزال يتمرغ فى أحط درجات الانحطاط ، وفى نفس المكان الذى كان فيه من آلاف السنين ، منذ كانت الدنيا مسرحا للقتل والتدمير : فالأنانية والعبث بحقوق الغير ، وعدم الاكتراث بالمسئوليات الأدبية ، والاعتداء على حرية الضعيف ، لا تزال على حالها — وربما زادت سوءاً فى عهد المدنية وأوج الرقى — إنها نفس همجية العهود الأولى ، إلا أنها تبدو فى ثوب آخر .

إن الأنانية تقاوم كمرض معد طالما كانت تمس فرداً أو أفراداً ؛ أما إذا انقلبت طاعوناً يجتاح بعدواه وطناً بأسره ، فإنها عندئذ تمتدح وتعد نصراً وطنياً مبيناً . وقد يستطيع الأفراد أن يعيشوا

إلا إلى طبقات العوام الماديين فى الشرق ، وطبقة غير المتعلمين فى الهند، وقبائل السود المتوحشين ، والطبقات المنحطة فى الصين. وهكذا فإن المادية هى التى تأتى إلى الشرق ولكن فى ثياب المسيحية، وإنه لعبث أن تبشر أوروبا فى الشرق لدين ثبت يقيناً أنه فشل فى الغرب نفسه ، فالمسيحية لم تستطع إنقاذ أوروبا — التى هى اليوم بين براثن المادية والتى تصطلى بنيران الجحيم — وهى التى كانت تدعى بسخف أنها ستجعل من آسيا جنة آمنة وادعة .

إن هزيمتها هزيمة ماحقة ، وها هى فلول جيوشها المنهزمة تجرب حظها فى الشرق وفى جعبتها عرض اقتصادى لا جوهر دينى؛ وإذا كان قد بقى لها ولو قدر ضئيل من القوة الروحية بعد هزيمتها على يد المادية فلم لم تحاول إرجاع روسيا الملحدة التى تنفث سموم إلحادها فى العالم إلى حظيرتها بدلا من إرسالها البعثات إلى الشرق حيث الاعتقاد فى الله أقوى بكثير منه فى أوروبا أو أمريكا . حقاً إن أوروبا تناوىء الشيوعية الروسية ، ولكن ذلك رعاية لمصالحها المادية فقط لأن الشيوعية تهدد رأسمالية أوروبا وهى الحجر الأساسى لفكرة الإمبراطورية الأوروبية ، فلو أن دعاة البلشفية اكتفوا بالتبشير للإلحاد فقط دون أن يتعرضوا لرأسمالية أوروبا وفكرة امبراطوريتها لما حركت أوروبا ضدهم أى ساكن .

إن فشل المسيحية فى إشعال نور الإيمان فى القلوب ليقف حائلا دون تقدم المادية يرجع إلى سببين ، السبب الأول هو أن

التى تهز الدنيا بأسرها ، فالمسيحية التى كانت لها هذه القوة عدة أجيال انجرفت أمام قوات المادية المتزايدة ، بل تمزقت إربا إربا على الأصح ، فتأثيرها فى روسيا الآن أضعف من أن يقف فى وجه الإلحاد ؛ وفى ألمانيا لا تعترف النازية بها كما أنها فى معظم الدول الأوربية الأخرى التى تدين بها إنما تعيش بالاسم فقط وليست لها صفات القوة الفعالة مطلقاً . أصبح الدين من شئون الإنسان الخاصة حتى أن الناس هناك يخجلون من التحدث عنه فى مجتمعاتهم ، ولا يتردد اسم الله إلا على الشفاه ، وبدلا من أن يعمل السياسيون على رفع ذكره يستغلون اسمه فى دفع كارثة وطنية أو جلب انتصار حربى ، فهم يلوذون بالله لكسب مغانم مادية أو خدمة أغراض سياسية أكثر مما يلوذون به ليحصلوا على سكون النفس وهدوء العقل . إن أوروبا نفت الله من فكرها فنفى الله السلام والنظام عن أرضها .

ربما يقال إن أوروبا ما تفتأ تدعو العالم لاعتناق المسيحية فهى تبعث البعثات وتنفق الأموال الطائلة لتنصير أفريقيا وآسيا وبعض جهات العالم الأخرى . فهلا يدل هذا على أن أوروبا مازالت تعتقد فى قوة المسيحية الروحية ؟ . والجواب لا ، فلو كانت أوروبا تؤمن أقل إيمان بقوة المسيحية الروحية لحاولت على الأقل إنقاذ روسيا من الإلحاد أولا ، إن أوروبا تعتقد فقط فى القيمة المادية للمسيحية ، ومن أجل ذلك نرى أن رسالتها لا تبلغ

الاقتناع بهما فبديهى أن يتلاشى الإله والدين معاً .

والسبب الثانى من أسباب فشل المسيحية هو أنها لا تعنى إلا بسلام الروح فى عالم الآخرة وأنها ليست نظاما أو تشريعاً له اتصال بهذه الحياة الدنيا ، ولم تعن فى هذه الناحية بغير الأمور الدنيوية التافهة ، ولكن مع تقدم العلم المطرد سمت وجهات النظر العامة فى الحياة ، فبدت أشياء تتعارض تماما مع روح المسيحية ، فمشكلة المال والمشاكل الجنسية كما أقرتهما المسيحية أجيالا لم يقبلهما العقل المتبصر ، ولا يخفى أنهما أعظم مشاكل الحياة ، لم تستطع المسيحية أن تجد حلولا للمسائل التى جدت أثناء تقدم المدنية المطرد فحسب بل إنها تعارضت معها تماماً ، ولذا فإن عقول الناس تحولت عنها فى اشمئزاز شديد ، وبضياع تأثير الدين على عقول الناس أصبحت المادية هى الحاكمة المسيطرة تماما .

إن قوة الدين تتلاشى تدريجاً فى أوروبا ، وإن ازدهار المادية ونماءها المطلق أطلق العنان للأنانية والحقد واستغلال النفوذ السياسى والكراهية ، وهى القوات التى جلبت الخراب والدمار على الإنسانية ، لذلك فإن النظام العالمى الجديد يجب أن يستند إلى قوة روحية ، ولا شىء غير الدين يستطيع أن يمنح هذه القوة . أما إذا كانت الأسس غير عميقة وغير ثابتة فإن بنيان النظام الجديد ينهار رأساً على عقب ، وهو عين ما حدث من عشرين سنة خلت . قامت الحرب العالمية الأولى وظلت أربع سنوات أتت فيها على الأخضر

المسيحية — مسيحية الكنيسة لا المسيحية السمحة التي جاء بها عيسى عليه السلام — قد شوهت ولقنت بطريقة نفرت العقل البشرى منها ، فإن أوروبا أيام أن كانت تخبط فى دياجير الجهل كانت راضية قانعة بقرار الكنيسة المتسلطة عليها (آمن ولا تسأل) ولكن ما إن ازدهر العلم وشملت الثقافة العلمية جميع مرافق الحياة حتى كان تلاشى ذلك الدين الذى تتنافى تعاليمه المشوهة مع العقل أمراً بديهياً . ولا مرية فى أن أول معركة خاضتها المسيحية كانت مع العلم الحديث ، فقد اعتبرت الكنيسة كل كشف جديد فى الدراسات العلمية مروقا لأن سلطتها الروحية كانت تقوى مع الجهل المطبق لا مع العلم والعرفان ، ولم تكن المسيحية هى الحافزة إلى هذا التقدم العلمى . ولكن على الرغم منها تقدم العلم واحتل مكانه فى أوروبا ،وقد حاولت الكنيسة دائماً أن تخمد كل كشف علمى بكل ما فى وسعها من سلطان، ولكنها كانت تبوء بالخيبة فى كل مرة ، ثم جاءت فترة بدأ العقل فيها — خلافاً لكل تعاليم الكنيسة — يضع موضع البحث والدراسة كل معتقدات الكنيسة ، المعتقدات الزائفة وألوهية عيسى والاعتراف والطعام المقدس فاتضح بعد التمحيص العلمى والدراسة المنطقية أنها مجموعة أساطير ممسوخة من أساطير بعض الشعوب الوثنية القديمة.

إن المسيحية هى الدين الوحيد الذى عرفته أوروبا ، والمسيح هو الإله الذى عبدته وحده ، فإذا كان العقل المتبصر لم يستطع

استئصال العداوة الطبيعية بين الفريقين المتحاربين، ولم يغيروا من طبيعة كلا الغالب والمغلوب، ولم يهتموا بالحقيقة الواقعة: وهي أنهم في قراراتهم الخاصة بحفظ السلام أمدوا غريزة الطمع البشرى بالقوة التي جلبت هذه الكارثة العظمى. لقد تحدثوا في مؤتمرهم في كل شأن إلا شأن توحيد البشرية في وطن واحد وعالم واحد. وفاتهم أيضاً أن يضعوا الأساس الأدبي لبنيان نظامهم الجديد. أما ذلك التأييد الأدبي المستمد من عصبة الأمم فلم يكن إلا هزواً ولعباً، وقد سميت العصبة بحق عصبة اللصوص، وذلك لأنه لم يكن لكل عضو من أعضائها سوى أمنية واحدة يتمناها من كل قلبه، هي أن يسطو على كل نفع مادي يكون في صالح دولته. ولم يكن بينهم فرد واحد يدفعه ذلك الدافع النبيل الذي يرمي إلى جمع الدول في عالم واحد. وها نحن أولاء في العام الثاني من الحرب العالمية الثانية، وها هي ذي تباشير النصر على المعتدين تبدو واضحة في الأفق، وها هي ذي كل المسائل الخاصة بالنظام العالمي الجديد الثاني تبحث وتمحص، إلا مسألة واحدة بدا غيابها جلياً كل الجلاء، وهي «كيف يمكن جمع الدول المختلفة كلها في عالم إنساني واحد». فإذا لم تعالج هذه المسألة جدياً فإن القربان الجديد الذي يقدم إلى مذبح آلهة الحرب، في هيئة سلسلة متصلة الحلقات من الحزن البشري والتعاسة والدمار، سيذهب دون جدوى، وسيكون نصيب النظام العالمي الثاني هو نفس نصيب النظام العالمي الأول، بل وربما مهد

واليابس وجرت الخراب والدمار على المدن والقرى ، وقتل مئات الألوف من الشبان الأصحاء ، وشوه العدد الوفير، وحرمت ملايين الأسر السعادة والهناء ، وأغرقت فئات كثيرة من البشر فى بحر من التعاسة والآلام ، وبدا كأن النتيجة النهائية للحرب كانت تتكافأ وكل هذه التضحيات، إذ هزم المعتدى هزيمة نكراء وفازت الديموقراطية فوزاً مبيناً ، ودعى أعظم المفكرين ذوى الرءوس الجبارة من كل الشعوب المنتصرة لعقد مؤتمر دولى كبير لوضع أسس النظام العالمى الجديد ؛ فأعيد تخطيط خريطة أوروبا من جديد ووضعت حدود غير الحدود القديمة لدولها ، ومزقت دول المعتدين تمزيقاً حتى لا تتمكن من لم شعثها واستعادة قوتها ثانية ، وأنشئت عصبة الأمم وقتئذ لتؤيد ذلك النظام تأييداً أدبياً، وكان هذا هو النظام العالمى الأول . فأين هذا النظام اليوم ؟ لقد انهار ولم تمض عشر سنوات على بدء تنفيذه ، ولم تمض عشر أخرى حتى كان العالم يتلظى فى أتون ضريم يزيد عن سابقه تأججاً وضراما ، إن الطريق التى كان على الإنسانية أن تسلكها انتهت بالدخان ولا شىء غير الدخان . ولم ؟ لأن النظام الجديد لم يقم على أسس متينة من الأخلاق . فالرجال المبجلون الذين اجتمعوا فى المؤتمر لم يعيروا أدواء الإنسانية الحقة التفاتاً، وظنوا أن انتصار دولة على أخرى هو العلاج للاعتداءات المقبلة ، وهذا خطأ . إذ ليس هذا علاجا ولن يكون علاجا . إنهم لم يعملوا بتاتاً على

فى الشعوب ، رأينا أنه كلما بدأت المدنية فى التفكك والانحلال ظهر وازع دينى جديد يمنعها من التردى فى هاوية الدمار التام ، وليس الأمر مقتصراً على أن المدنية - بحكم ادعائها فى البقاء - ينبغى أن تستند إلى أساس أدبى بحت ، ولا على أن الأخلاق القويمة السامية إنما تستلهم من الإيمان بالله فقط ، وحتى تلك الوحدة التى تجمع كل العناصر الإنسانية التى بدونها يستحيل على أية مدنية إنسانية أن تقف على قدميها يوما — لا يحصل عليها على الوجه الأكمل إلا بقوة الدين . وإنه ليقال دائماً إن الدين هو المسئول عن العداوة والدم المسفوك فى هذا العالم ، ولكن النظرة العابرة فى تاريخ الأديان تبين بجلاء أن هذا الزعم باطل . فالمحبة والسلام والرحمة وصلة الرحم هى نفس ما يدعو إليها كل دين . ولقد تلقت الدول هذه الدروس النافعة على حقيقتها بروح العمل وإنكار الذات التى كان الإيمان بالله يوحى بها ، فإذا كان هناك عداوة وأنانية وسفك دماء بين من يعتنقون الدين ، فهذا على غير إرادة الدين وبرغمه لا نتيجة لرسالة المحبة التى أتى بها . وما وجدت هذه المساوىء إلا لأن الطبيعة الإنسانية تسلس قيادها لها ، ووجودها دليل على أن الإنسانية فى حاجة ملحة إلى يقظة دينية عظمى ، وإلى إيمان أعمق بالله ، فإن انحدار الناس إلى درجات أدنأ لا يدل على فساد المثل العلياء ولكنه يدل على شدة الحاجة الماسة إلى ذيوعها . ولو قدر للوحدة أن تكون هى القاعدة الحقيقية للمدنية الإنسانية ،

الطريق لانقلاب عالمى أشنع من الانقلاب السابق ، وعندئذ فلن يستطيع أى مؤتمر يعقده الماديون أو أية عصبة من الأمم الجشعة أن تقر السكينة فى أوروبا ، وإن إيجاد الحلول لألوف المسائل المادية لن يجلب السلام ، مالم توضع الأسس لجمع الشعوب المختلفة فى عالم واحد ، ومالم تتغير العقلية المادية الجشعة . والطريق الذى يسلكه السياسيون اليوم ليس هو الطريق الذى يؤدى إلى مملكة الله ، ولن تفوز الإنسانية بالسلام إلا إذا وجدت مملكة الله فى الأرض . أما إذا قام النظام العالمى الثانى على نفس الأسس المادية فسيؤدى هذا حتما إلى حرب عالمية ثالثة كما أدى النظام العالمى الأول إلى الحرب العالمية الثانية . وإنه لمن سوء طالع الإنسانية أن يلقى بالدين الذى يستطيع وحده وضع الأسس التى يقوم عليها النظام العالمى الصحيح فى زوايا الإهمال ، وأن ينظر إلى الترياق النافع كأنه السم الناقع ؛ فإن الكراهية للدين أصبحت البدعة الجديدة عند الماديين المتحضرين ، فهم لا يلقون بالا إلى الحقيقة التى لا مرية فيها وهى أن الدين هو القوة الفعالة التى ساعدت على بلوغ النوع الإنسانى إلى ما بلغه من النماء والانتشار . ومن الثابت أن المدنية الإنسانية التى ننعم بها اليوم ليست إلا من صنع الدين ، فالدين هو الذى استطاع أن يوجد حالة من المدنية ، كان لها فضل إنقاذ النوع الإنسانى من شر التمزيق والانقراض المرة تلو الأخرى ؛ فإننا إذا ما رجعنا إلى تاريخ المدنية الإنسانية

الجغرافية وبين العقائد المختلفة كذلك. وآخى بين البشر جميعاً حتى أن قلوب أهل المشرق البعيد كانت تخفق متحدة إذا ما اهتزت قلوب أهل المغرب الأقصى . ولم يدل فقط على أنه أعظم قوة تؤلف بين الإنسانية بل دل أيضاً على أنه القوة الوحيدة ، فى حين لم تنجح الأديان الأخرى إلا فى لم شمل جنس واحد أو شعب واحد ، نجح الإسلام فى التأليف بين أجناس متباينة وشعوب مختلفة ، وفى تشذيب العناصر الإنسانية غير المتناسقة ، ولم يجعل الإسلام من الأجناس المتباينة جنساً واحداً ، ولا من الشعوب المختلفة شعباً إنسانياً فحسب ، ولكنه استطاع بهذه الأسس المدعمة للمدنية أن يعيد للإنسان مدنيته المفقودة ، وهذا ما يقوله ج . ه . دينسون فى كتابه Emotions as the Basis of Civil. :

« فى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام ، أما النظم التى خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية ، كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح وقد

ولا أقصد بها مدنية شعب واحد أو دولة واحدة وإنما أقصد مدنية الإنسانية جمعاء ، فالإسلام بلا شك هو أعظم قوة مدنية عرفها العالم أو يجدر به أن يعرفها . فهو الذى أنقذ البشرية من التردى فى هاوية الهمجية من ثلاثة عشر قرنا مضت ، فمد بذلك يد المساعدة للمدنية التى انهار بنيانها من القواعد . وأقام لتوه قواعد أخرى جديدة وأنشأ صرحاً جديداً من العقائد والشرائع . والإسلام هو الذى أهدى إلى العالم الفكرة الجديدة التى ترمى إلى إدماج الجنس البشرى كله — لا هذا الشعب أو ذاك — فى عالم واحد . وقد بلغت هذه الفكرة من القوة حداً جعلها تؤلف بين شعوب لم يكن بينها غير العداوة والشحناء من بدء الخليقة . ففى بلاد العرب حيث العداوة متأصلة بين القبائل التى تجمعها شبه الجزيرة وقعت المعجزة التى يتضاءل أمام عظمتها كل شىء ، كما وصفها أحد الكتاب الإنجليز « قوم فشت فيهم الفرقة وصعب جمعهم إلى أن وقعت المعجزة ، فقام رجل استطاع بفضل شخصيته وقوة رسالته الإلهية أن يحقق ما كان يبدو مستحيلا فألف بين الزمر المتحاربة (بواطن العراق وظواهره ص ٩٩) .

ولم يكتف الإسلام بأن يؤلف بين الزمر المتحاربة فى وطن واحد ، بل أوجد روابط الأخوة بين جميع شعوب العالم ، وربط كل منها بالآخر ، حتى الشعوب التى لم يكن لها ما يميزها غير انتسابها للإنسانية ، ومحا الفوارق بين الأجناس والألوان واللغات والحدود .

أجيال متتالية يتوارثها الخلف عن السلف ، وكاد الناس يتحولون إلى رماد من قسوة نيران الحرب التى تلحقهم . إلى أن تداركتهم رحمة الله العلى العظيم فصبت عليهم من عل ماء بارداً أطفأ الجمر المتقد لهذه الأحقاد القديمة الدائمه ، وأحل مكانها المحبة والرحمة . غريبة هذه الأخوة التى وضعت أسسها فى بلاد العرب فى القرن السابع ولا تمت لطبيعتها بسبب ، فما أن انقضى قرن حتى كان نور المدنية والعرفان المنبعث من شبه الجزيرة المجهولة يغمر وراء حدودها مسافات شاسعة من العالم . وإن الوحدة الإنسانيه التى هى بمثابة الحجر الأساسى لهذه العقيدة الجديدة لفريدة فى بابها ، ولم ير العالم ما يماثلها من قبل ، ولم يحلم أى تشريع أو أية عقيدة بمثل هذه الأخوة الإنسانية ، الأخوة التى لا تأبه لفروق الجنس واللون واللغة ولا تخضع لنظام الطبقات كذلك . ولا تتسامى إليها الأفكار فهى لا تقرر المساواة فى الحقوق الإنسانية والمدنية للإنسان فقط ولكنها كذلك تقرر حقوقه الروحية . «كان الناس أمة واحدة» (٢ : ٢١٣) هذه هى عقيدتها الأساسية ، ولذا فإن تبليغ الرسالة الروحية اعتبر للناس، للشعوب كافة ، بعد أن كان لا يفوز به إلا هذا أو ذاك من الشعوب المحدودة الطالع . «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» (٢٥ : ٢٤) .

إن فكرة إدماج البشرية فى وطن واحد دون الاهتمام بالأجناس والألوان واللغات أو التقيد بالحدود الجغرافية هى

تسرب إليها العطب حتى اللباب ، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه » .

وتواجه المدنية خطر التمزيق والتدمير مرة أخرى نتيجة لحالة تشبه الحالة التى كانت عليها فى القرن السادس ، فإن شعوباً قامت تناوىء أخرى وتعمل جهدها للقضاء عليها ، والحاجة ماسة إلى قوة ما لتجمع الشعوب المختلفة فى إنسانية واحدة ، وهذه القوة التى عليها أن تغيِّر العقلية تماماً حتى تمحى العداوة والبغضاء لن تكون إلا قوة أدبية ، والقوة الأدبية لا يمنحها إلا الدين .

وقد بسط الإسلام مثل هذه القوة فى القرن السابع مبتدئاً ببلاد العرب ، لأنها كانت فى تلك الأيام فى حالة قتال وفوضى تشبه تماماً الحالة التى عليها أوروبا فى الوقت الحالى . فالقبائل والعشائر التى تسكن تلك الصحراء كانت فريسة حروب شعواء متصلة الحلقات، وكان أتفه الأشياء بمثابة عود الثقاب يشعل أدوار حرب قد تستمر سنين ، وكانت القبائل الأخرى تلقى بنفسها فى هذا الأتون ، فبعضها ينحاز لناحية والبعض الآخر ينحاز للناحية الأخرى ، وهكذا تسبح شبه الجزيرة فى بحر من الدماء ، ويعمها الخراب والدمار، ولا يحل السلام إلا بعد أن تنفد قواهم أجمعين ، ثم مايكاد مداد الصلح يجف حتى تتحرك الأحقاد الكامنة وتصطلى البلاد بنيران الحرب من جديد . وعلى هذه الحال سارت الحياة مدة

وينال نصيبه من الاحترام التام من كل مسلم تربطه به أخوة الإسلام، وذلك بمجرد اعتناقه الإسلام مباشرة، وهو لا يستطيع فقط أن يعبد الله فى نفس المسجد، ولكنه يستطيع كذلك أن يقف كتفاً لكتف مع أعظم إخوانه مقاما ومكانة اجتماعية، كما يستطيع أن يتناول طعامه وإياه على مائدة واحدة. فانسجام الإسلام ومساواته غير معروفين فى أية جماعة أو دين أو نظام فى العالم كله. ولا يمكن لغير الإسلام أن يقدم الديموقراطية العالمية الحقة التى تنشر مثل هذه المساواة الفذة بين جميع البشر، وهو ذو تأثير روحى قوى، فالإنسان بمجرد اعتناقه إياه يحس أنه قد سما إلى مستوى عال تختفى فيه كل فروق الجنس واللون والطبقات كما لو كان هذا بفعل قوة سحرية. ولا ينكر الأعداء قبل الأصدقاء أن الإسلام ما زال له حتى اليوم هذه القوة الروحية على الرغم من تقلص قوته الدنيوية، وهاك ما يقوله المستر جيب فى كتابه (حيثما يكون الإسلام) :

« ولكن الإسلام ما زال فى قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحا باهراً فى تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة، فالجامعة الإسلامية العظمى فى أفريقيا والهند وأندونيسيا بل وتلك الجامعة الإسلامية الصغيرة فى الصين وتلك الجامعة الضئيلة فى اليابان لتبين كلها أن الإسلام ما زال له القدرة التى تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات.

الهدية التى أهدتها جامعة الإسلام إلى المدنية البشرية ، وهى الترياق الوحيد لسم الأحقاد الدولية والعداوة البغيضة اللتين ساقتا المدنية والحضارة إلى هاوية الدمار ، والمسيحية دين دولى كالإسلام من وجهة أنه الدين لكثير من الأمم والشعوب ، أما من وجهة المساواة بين هذه الشعوب ونشر الإنسانية بينها فالإسلام هو الدين الدولى العام . وإن فشل المسيحية فى هذه الناحية لذريع . فالمسيحيون البيض ما زالوا حتى اليوم يضمرون العداوة للمسيحيين السود ، مع أنهم قد يعيشون معهم فى قطر واحد ، كما هو الحال فى أمريكا موطن الديموقراطية وأعظم الشعوب حضارة . وعلى الرغم من النزعات الدينية الطيبة التى يبديها المستر روزفلت ، لا يستطيع الرجل الأبيض أن يعيش مع الرجل الأسود تحت سقف واحد ، وما يزال مسيحيو الغرب يعتقدون أنهم أسمى من مسيحيى الشرق ، فهم لا يسمحون لهم إطلاقا بعبادة الله فى كنائسهم الخاصة بهم ، كما أن معتنق المسيحية من طوائف المنبوذين الحقيرة فى الهند ما زالوا حتى اليوم موضع الاحتقار من طوائف الهندوس العالية ، ومن هذا يبدو أن المسيحية فشلت تماما فى تأليف وحدة إنسانية ، فى حين أن الإسلام تمكن من إيجاد نظام عالمى عماده إخاء عام جمع بين الغربى والشرقى والأبيض والأسود والآرى والسامى والهندى والعبد الأسود وساوى بينهم تماما ، فالعبد الأسود أو المنبوذ يتساوى مع الرجل الأبيض أو ذى المكانة العالية فى الحسب والنسب ،

أن يستقر الإسلام فى الأرض إلا إذا قامت هذه الأسس القوية القويمة .

والسبب الثانى هو أن فكرة المساواة والإخاء الإنسانى تطبق عملياً فى حياة المسلم بإقامة الصلاة ، فالمسلمون يجتمعون يومياً للصلاه فى المساجد ، فيقفون فى حضرة خالقهم جنباً إلى جنب ، لافرق بينهم ، فالسلطان فى جوار أفقر رعاياه ، والغنى فى ثيابه وحلله بجانب السائل فى أسماله البالية ، والعبد الأسود يقف كتفاً لكتف مع السيد الأبيض ، فتتلاشى فى داخل المسجد فروق الطبقات والثراء واللون ، ويسود جو هادىء جديد : هو جو الإخاء والمساواة والمحبة . وإنها لنعمة عظمى أن ننعم خمس مرات يومياً بجو من السلام الكامل فى عالم كله نزاع وعراك ، وننعم بالمساواة بينما عدم المساواة قانون العصر ، وبالحب بينما الحياة اليومية أحقاد وعداوات .

يعيش الإنسان فى حياته اليومية فى عالم من عدم المساواة ، والمنازعات ، والعداوة ، والبغضاء ، فإنه إذ يخرج من هذا العالم خمس مرات فى اليوم ، يوقن أن المساواة والإخاء هى الينابيع الحقيقية للسعادة الإنسانية ؛ فإذا ما أسقطنا من حسابنا مايجنيه الإنسان من فوائد عظمى عندما يقف فى المسجد بين يدى الله ، فإن الوقت الذى ينفقه فى الصلاة لا يضيع سدى من الوجهة العملية الإنسانية ، بل على العكس ، فإن الخير كل الخير فى تلقى

فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع » (ص ٣٧٩) .

فما سر نجاح الإسلام فى نشر إخاء عالمى ، وفى تأليف جبهة واحدة من الشعوب المختلفه ؟ السبب الأول هو أن تعاليم الإسلام الأساسية تنص على أن الجنس البشرى أسرة واحدة ، وأن الله تعالى ربها ، وما انقسامها إلى فروع وقبائل مختلفة ، إلا ليتعارف الناس ، ويزدادوا ألفة ومودة . « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » (٤٩ : ١٣) .

والحال فى الأفراد كالحال فى الشعوب ، فليست الدولة العظمى من تستعبد الدول الأخرى وتطأ حقوقها بأقدامها ، فإن مثل هذه الدولة لتتساوى مع أحط الدول وحشية ، أما الدولة العظمى حقاً فهى التى تخشى الله وتقدر حقوق الآخرين . إن عقيدة المسلم فى الإنسانية هى أنها أسرة واحدة ، بغض النظر عن فروق الألوان واللغات والعقائد ، وأن الله هو ربها الأعلى ، أو على حد تعبير المسيحية هو (الأب) لها جميعاً . وقد يتشاحن أفراد الأسرة الواحدة من وقت لآخر ، ولكن لن تبلغ هذه المشاحنات حد الكراهية الدائمة ، فإن هذه الفكرة الإنسانية فى الحقيقة هى الدرع الوحيدة الواقية من طغيان الوطنية والجنسية والألوان ، ولا يمكن

حياة الشعوب أجيالا ، فغيروا تاريخ الناس والدول . فإنكارهم لذواتهم، وأمانتهم، وإخلاصهم، أشياء لا يُتسامى إليها ألبتة، ومبادؤهم التي هي مبادىء الدول في كل العصور تؤدى إلى الحقيقة الفريدة ، وهي أن الاعتقاد بوجود الله يصبح قوة أدبية من الطراز الأول ، عندما يصبح يقيناً في قلب الإنسان ، نتيجة لصلاته للذات العلية . ويالها من قوة أدبية فذة لا تستطيع أقوى القوات المادية أن تقف أمامها . أليست تجربة هذه الشخصياتُ العظيمة هي السراج المنير الذي يهدي البشر إلى أنهم يمكنهم أن يجعلوا من « الله » قوة أدبية في حياتهم ؟ إن القوة والعزيمة اللتين توهبان لشخص ما توهبان لغيره ، فإذا ما استعملتا استعمالا صحيحاً تمكن الإنسان أن يقوم بما قام به من سبقه . والواقع أن المدنية لم تقم على أسس الرفاهية المادية التي استخلصها الإنسان من طوارىء الحدثان ، وإنما قامت على الأسس الثابتة الحقة التي دعمتها المشاعر النبيلة المتفجرة من الإيمان بالله . وإن نظرة عابرة إلى تاريخ المدنية الإنسانية تبين أن الإيمان بالله كان القوة المثلى التي ساعدت على وصول الجنس البشرى إلى ما وصل إليه اليوم من النماء والانتشار . فإن كل ما في الإنسان من خير ونبل ، ليس منشؤه تغلبه على عاديات الدهر وصروفه ، وإنما منشؤه تغلبه على نفسه المستمد من إيمانه بالله ، وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها ، وهؤلاء الرجال أمثال : إبراهيم وموسى وعيسى وبوذا وكريشنا وزردشتر وكونفوشيوس ومحمد

تلك الدروس القيمة التى تجعل للحياة قيمة ، تلك الدروس عن الإخاء والمساواة والمحبة التى بممارستها عملياً خمس مرات فى اليوم تدعم قواعد الوحدة الإنسانية ورفاهية الجنس البشرى ، وترمى هذه الصلوات الخمس المستديمة إلى تطبيق دروس الإخاء والمساواة عملياً ، وهما عمود الدين . ولو اكتفى الإسلام بتلقين دروس المساواة والإخاء هذه تلقيناً لفظياً ، دون أن يترجمها إلى حياة الإنسان اليومية بهذه الصلوات ، لما كان لها أى تأثير على النفوس ولما بقى له من أثر . والصلاة تؤدى فى نفس الوقت غرضاً عظيماً آخر ؛ فمهمة الدين لا تقتصر على إثبات عقيدة وجود الله نظرياً ، بل تتعدى إلى أبعد من ذلك ، فالدين يعمل على تحقيق الإيمان بأن الله قوة فعالة حية فى حياة الإنسان ، وما الصلاة إلا الوسيلة التى تحقق هذه الغاية العظمى . والإيمان الحقيق بوجود الله لا يتأتى بالاعتقاد بأن هناك إله يسيطر على العالم الخارجى فقط ، ولكن بمعرفة الإنسان قدسية الله فى نفسه ، ولا يحصل على هذه المعرفة إلا بالصلاة . والتجربة الإنسانية العامة تؤيد هذه الحقيقة ، ففى كل عصر ، وفى كل دولة ، وجد أناس تيقنوا بقلوبهم فى أثناء صلاتهم من الحقيقة العظمى : حقيقة وجود الله ، فأوقفوا كل حياتهم لصالح الإنسانية .

ومع أنهم لم يعتقدوا بوجود الله إلا اعتقاداً أدبياً ، لم يحدث أى تغيير فى حياتهم الخاصة ، إلا أنهم استطاعوا أن يغيروا تماماً

ما تملك من وسائل الرفاهية المادية لن تجلب السعادة الحقيقية والسلام لشعوبها . وفضلا عن أن الإسلام هو النظام الوحيد المعروف فى هذا العالم الذى نجح فى إقامة عالم من الإخاء ، وفى جمع الشعوب المختلفة فى وطن واحد ، فهو الدين الذى ساعد كذلك الروح الإنسانية التى تؤيدها العناية الإلهية على مواجهة قوات المادية الوفيرة ، ولاجدال فى أن المسلمين كوحدة عامة يؤمنون بالله إيماناً عميقاً ، يفوق إيمان أتباع أى دين آخر ، وقد أعان هذا الإيمان العميق بالله على الفتوحات الإسلامية العظيمة ، التى ليس لها نظير فى تاريخ العالم ، ومع أن الفرس والروم ـ إذ ذاك ـ كان لهما من الموارد المادية الحظ الوفير ، على نقيض العرب الذين لم يكن لهم منها سوى حظ ضئيل ، ومع أنهما كانتا تفوقان العرب فى العدد والعدة ، حتى كان لا يجوز أن تعقد مقارنة بين جيوش الإمبراطوريتين وجيش المسلمين ، فإنهما لما التحمتا والمؤمنين والتقت الجموع ـ وكانتا هما المعتديتين ـ ذهبتا أدراج الرياح أمام قوة الإسلام الروحية العظمى ، أمام إيمان المسلم بالله وبعدالة قضيته ، ذلك الإيمان الذى ساعد المسلمين على الاحتفاظ بكيانهم أمام الغارات الوحشية التى شنتها أوروبا فى الحروب الصليبية ، وهو عين الإيمان الذى يجعل المسلمين اليوم يتنازعون والمسيحية سيادة العالم على الرغم من الحقيقة الراهنة . وهى أن قوات المادة كلها ـ المال والقوة والإدارة ـ فى جانب

هم الذين غيروا تاريخ الجنس البشرى ، وارتقوا به من الحضيض إلى أرفع المراتب الأخلاقية .

وقد استطاع الإنسان أن يقهر طبيعته الوضيعة بمحاكاة النماذج النبيلة لنكران الذات وخدمة الإنسانية فى أثناء تلقيه تعاليم هذا أو ذاك من الأنبياء والرسل .

وإذا ماتوافر الإنسان على دراسة الأحاسيس النبيلة التى تعتمل فى نفس الإنسان لوجد أن أصولها إنما تمت لتعاليم بعض الأساطير العظيمة التى يشيع فيها الإيمان بالله ، والتى فيها تبذر بذور الإيمان فى القلوب البشرية الأخرى . وإن الفضل فى الانتشار الأدبى والحقيقى للنوع الإنسانى كما نراه اليوم ، والذى يمكن أن نسميه المدنية الإنسانية ، إنما يعود للإيمان ، ولو أن المزايا المادية ليست إلا أشياء ثانوية ، فإن سلطان المادة لن يجلب معه إلا دستوراً من الأنانية والأثرة ، وإن أى نظام أبتر يوضع لتقسيم الثروة بالتساوى لن يلهب المشاعر النبيلة التى هى مفخرة الإنسانية اليوم ، أما الإلحاد فلن يؤدى بالبشر على مر الأيام إلا إلى مهاوى الهمجية والبربرية .

ولا مرية فى أن بنيان المدنية الإنسانية لن يقوم إلا على عمودين اثنين هما : الإيمان بالله وجمع الإنسانية فى عالم واحد ، وقد زلزلت المادة التى تسيطر اليوم على أوروبا هذين العمودين من أساسهما : فإذا لم يعمل على توطيدهما ثانية ، فإن أوروبا بكل

بتصويرهم الإسلام تصويراً يخالف الحقيقة كل المخالفة، لأسباب سياسية ودينية . إن الإسلام رسول السلام للعالم كافة بكل ما فى الكلمة من معان، فهو أكثر الأديان المنزلة سماحة ويسراً، ولكنهم شوهوا حقيقته وقالوا عنه إنه دين متعصب مستبد . إن الإسلام لم يكتف بأن يقر فى وضوح كل أنظمة الأديان السماوية الأخرى، بإعلانه أن ما من أمة على وجه الأرض إلا جاءها نذير أو رسول يدعوها لعبادة الله (١) بل تعدى إلى أبعد من ذلك فجعل كل من اعتنق الإسلام يؤمن بالرسل الأخرى إيمانه بنبي الإسلام تماما (٢) ولكن زعماء أوروبا السياسيين والدينيين يصورون النبي عليه الصلاة والسلام ممتشقا السيف في يد وحاملا القرآن فى الأخرى. وعلى الرغم من الأضواء التى سلطت أخيراً على هذه الترهات فإن بعض الكتاب الأوروبيين مازالوا يصفون الإسلام بأنه دين السيف (٣) وقد فكرت أوروبا تحت تأثير اعتقاد خبيث فى القضاء على الإسلام بإضعافه من ناحية ومهاجمته بشتى الادعاءات الكاذبة والافتراءات من ناحيه أخرى، وإن كان هناك ثمة أمر عقدت عليه أوروبا

---

(١) (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) (٣٥ : ٢٤)
(ولكل أمة رسول) (١٠ : ٤٧)
(ولكل قوم هاد) : (١٣ : ٧)

(٢) (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) (٢ : ٤)

(٣) «إن نشر الاسلام بحد السيف والقوة هو الواجب الدينى على كل مسلم » و . ب . ماكدونالد — « دائرة المعارف الاسلامية » .

المسيحية ، ولا ريب فى أن الصلاة الإسلامية التى تجعل روح المسلم على اتصال بالذات الإلهية هى القاعدة التى يقوم عليها الإيمان العميق بالله ، وأن أثر الصلاة فى تكوين الخلق العالمى فى المسلم لا يمكن إنكاره إطلاقا ، فالمسلم إذ يحس برهبة المثول بين يدى الحضرة الالهية خمس مرات فى اليوم ، لابد وأن يُغرس الإيمان بالله فى تفكيره وفى نظرته إلى العالم المادى ، فيصبح هذا الإيمان قوة فعالة فى حياته .

ومن هذا يتبين أن الإسلام يستطيع أن يمد أوربا بالقوتين المثاليتين العظيمتين : الإيمان الخالد بالله والنظام الذى يقوم على نظم الجنس البشرى فى سلك واحد ، وبهما يستقر السلام فيهما . ومالم تقبل أوروبا هاتين المنحتين السماويتين من الإسلام فلن تنتهى مصائبها وكوارثها ، فلتعالج أوروبا عللها بعقل واع وتجرع الدواء بقلب ثابت ، ولتصلح من خطأ الأيام الماضية فلا تنظر إلى الصديق الصدوق نظرتها إلى العدو اللدود . شاءت أوروبا أن تقضى على الإسلام بحد السيف فى حروبها الصليبية ولكنها باءت بالفشل ، وكان أثر ذلك سيئاً ، فقد عاد الجندى الأوروبى إلى وطنه ممتلئاً بالاعتقاد الزائف أن الإسلام هو عدو أوروبا بل عدوها المخيف لأنه لم يلتق به إلا فى ساحات القتال ، وظل هذا الاعتقاد ميراثاً يتوارثه الخلف عن السلف ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فإن قادة أوروبا ـ وهم سادة أساليب الدعاية ـ أشعلوا جذوة هذه الكراهية

الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » (٥ : ١٤ - ١٩) . والميثاق الوارد ذكره فى الآية الأولى آنفة الذكر يقصد به التنبؤات الواردة فى الأناجيل عن ظهور النبى الكريم محمد وأمر المسيح عيسى حوارييه باتباع النبى العظيم الذى سيقدم للإنسانية نظاما عالمياً كاملا . وقد ورد فى الآية سالفة الذكر كذلك أن السلام الحقيقى لن يحل بالمسيحية إلا بعد أن تقبل النظام الذى أتى به الإســـلام . وإن اندفاع المدنية الأوروبية فى طريقها المحتوم إلى الدمار بسبب نمو المادة المطلق ليعد جزءاً من الخطة الإلهية التى كشف عنها النبى، فقد ورد مايدل على هذه المادية الأوروبية فى القرآن الكريم .

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً » . فهذا وصف صادق لمدنية الغرب التى تفخر بها المسيحية ، سعى ضال فى الحياة الدنيا ، وصنع حسن ومهارة فى الصناعة هما أهم ميزاتها، وكفر تام بالله ، وإن نجم المدنية الغربية ليعلو ويتلألأ إذا ما ذكرت المزايا الدنيوية ، ولكنها فى المسائل الروحية تغمض عينها كل الغمض . وإن صورة المدنية الحديثة لتبدو فى غاية الوضوح خلال الآيات سالفة الذكر ، فالصناعة فخر الغرب وأهم ميزانه ، ولقد

الخناصر فهو أن الإسلام أخطر عدو لها وأن واجبها القضاء عليه أو إضعافه بشتى الأساليب المشروعة وغير المشروعة . وقد سعت الهيئات السياسية والدينية التى تنتسب لكافة شعوبها إلى هذه الغاية سعياً حثيثا . هذا ما أرادته أوروبا ولكن الله جلت قدرته أراد غير ذلك ، إذ الإسلام نعمة الإنسانية ولا بد أن يبقى ، فأصبحت الشعوب الأوروبية التى انعدم الانسجام بينها يحقد بعضها على البعض الآخر وانقلب هذا الحقد - كما كان حتما أن ينقلب - إلى عداوة وكراهية شديدتين ، فحلت الرغبة فى قضاء كل منها على الآخر محل الرغبة فى القضاء على الإسلام ، وهكذا عوقبت المسيحية على خطيئتها ، إذحاولت القضاء على صديقها الحميم العقاب الذى تستحق ، ألا وهو تدمير شعوبها الصديقة المتآلفة ورغبة كل منها فى القضاء على الآخر ، وهو عين العقاب الذى جاء فى التنزيل المقدس من ثلاثة عشر قرناً مضت « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ، يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى الله به من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

« يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من

ما على الأرض زينة لها ، غير أن هذه الزينة تتحول فى النهاية إلى خراب ، وهذه المدن الجميلة المشيدة يلحقها الدمار ، وهذه الحدائق الغناء تصبح قفراً يبابا .

من هذا يتأكد أن تيار المدنية ينتشر حتى يعم الأرض كلها ، ثم بعد ئذ لن تنجو مدينة من تذوق الدمار « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا ، كان ذلك فى الكتاب مسطوراً » وقد أخبرنا كذلك أن كلمة العذاب الذى ينزل بهذه الشعوب جزاء خطيئتها العظمى ، إذ ترفض السلام الذى يمنحه الإسلام إياها : بله السعى للقضاء على رسالة السلام السماوية هذه ، تنطق بها هذه الشعوب أنفسها ؛ فتكون أوروبا نفسها أداة خرابها ، إن الإرادة الإلهية تختار قوما لمعاقبة قوم آخرين ، فاليهود عوقبوا على مخالفتهم أوامر الله بيد بختنصر ، ونزل بالمسلمين العقاب الإلهى على يدى هولاكو ؛ فأنزل الخراب ببغداد مركز المدنية الإسلامية . غير أن أوروبا التى ماتزال فى أوج قوتها ولا يتسنى لأى قوم آخرين إنزال العقاب بها ، فإن المشيئة الإلهية اقتضت لها أن تذوق العذاب بأيديها . وهذا العقاب الإلهى يبدو واضحاً فى القرآن حيث يطلق على الشعوب الأوروبية اسم يأجوج ومأجوج « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » وقد ورد فى الحديث أن يأجوج ومأجوج شعوب قوية تحتل تسعة أعشار العالم « وليس لدى أى قوم القدرة على

أخبرنا أن القوم ينهمكون فى صناعاتهم انهماكا ينسيهم الله ويجعلهم لا يفكرون فيه إطلاقاً فيفقدون تبعاً لذلك السلام الفكرى الذى يمنحه ذكر الله وحده . إن على أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون إلا فى أفقهم الصناعى المحدود ، فلا يختلسون نظرة شكر إلى الله العلى العظيم ، إن شهوة الإنتاج والامتلاك طغت عليهم فجعلتهم لا يلقون بالا إلى أغراض الحياة السامية ، فالإنتاج وزيادته ، والامتلاك وتنميته هما كل الحياة أو أسمى غايات الحياة فى نظرهم ، وقد انهمكت كل الشعوب فى هذا المضمار وأخذ كل منها يجد لسبق الآخر . وهكذا أظهر الانهماك الصناعى فسادهم ، وقد امتلأت قلوبهم بالعداوة والبغضاء ، وأخذ كل منهم يعمل ليل نهار على وضع الخطط للقضاء على الآخرين . وإن بوار المدنية الغربية المادية لوارد بوضوح فى أول سورة الكهف التى تعنى بتاريخ المسيحية ، وإن هذه الآيات لتتحدث عن نهاية المسيحية .

١ — « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »

٢ — « ولعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهـذا الحديث أسفا ، إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ماعليها صعيداً جرزاً »

والآية الأولى تبين أن الشعوب المسيحية هى المقصودة بالكلام هنا والآيتان الثانيتان تبينان أن هذه الشعوب تجعل

كلمة رب، كفالة الشيء وتعهده . إذ يدرج من حالة إلى أخرى حتى يبلغ غايته من الكمال ، والعالمين جمع عالم أى مجموع الشعوب ، وعلى ذلك فالله طبقا لما جاء به الإسلام ، المتكفل بكمال النوع الإنسانى فى كافة الشعوب . ويدرج العالم نحو الرقى فى خطوات ومراحل، ولكن قد تدفع هذه النكبات العالمية الشاملة وهذا الخراب المدمر الذى لم تشهده الدنيا من قبل ، العالم إلى الأمام فى خطوات واسعة مطردة ، وفى هذا التناحر الأوروبى يقول القرآن « ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً » والنفخ فى الصور نذير بحدوث انقلاب خطير ، وإن نظم الزمر المتعاركة فى سمط واحد ، أصبح حقيقة واقعة فى الوطن الإسلامى، لأن الإسلام هو العقيدة الوحيدة التى تمكنت من جمع الشعوب المتباينة فى وطن عام واحد ، ولذا فهو الجدير بأن يكون النظام العالمى الجديد الذى يعتمد عليه الرقى الإنسانى للوصول إلى غاية أسمى .

نجح الإسلام كما بينا فى إيجاد وحدة متماسكة الأطراف من كافة عناصر الإنسانية المتنافرة، بواسطة عبادة الله وتثبيت جذور الخشية منه سبحانه فى القلب البشرى ، والإيمان بالله والإيمان بالوحدة الإنسانية يجب أن يكونا الأساسين لأى نظام عالمى يقصد به إنقاذ البشرية من الدمار وإعادة السلام الفكرى إليها . ولما كانت الوحدة الإنسانية هى النتيجة الحتمية للإيمان العميق بالله ، فعندئذ

قتالهم » م . وتعاقب دول أوربا هذه على كفرها بمناوءة بعضها البعض الآخر ، وهنا يبدو القرآن واضحاً للمرة الثانية « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض » وأيضاً « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً » .

وهذا نفس ما نلمسه اليوم فإن أهل أوروبا سطوا أول ماسطوا على الأراضى الأجنبية ، ثم اغتالوا الشعوب الضعيفة اغتيالا ، ولم يكن فى وسع أية دولة أن تقف فى وجههم ، وما إن دانت الدنيا لهم حتى اندفعوا يمسك بعضهم بخناق بعض ، واشتبكوا فى قتال مميت ، وأصبحوا هم أنفسهم الأداة التى خربت مابنته أيديهم ، والجحيم الذى تعنيه الآيات الكريمة سالفة الذكر يندلع اليوم لا فى أوروبا وحدها ولكن فى معظم أنحاء العالم ، وما ربك بظلام للعبيد ، فإن هذا الجحيم الذى يصطلى به العالم للجزاء العادل على إهماله لذكر الله ، وعدم سماعه لمثل هذا القول « الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً » ١٨ : ١٠١ وقد تحقق كل جزاء ورد فى القرآن « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون » .

إن آلام العالم لا تضيع سدى فإن من الحزن قد تنفجر ينابيع السعادة الحقة . ولا يتدرج الرقى مادياً فحسب ولكنه يتدرج روحياً كذلك . ففى أول آية من آيات القرآن وهى أكثر الآيات ترديداً يطلق على الله سبحانه وتعالى اسم « رب العالمين » ومعنى

الحرية التامة ليسأل بارئه كل ما يريد ، ولينفس عن مشاعره فى حضرة العلى العظيم كما يحب ، وهى فى الوقت نفسه تجعله لا يطلب المعونة إلا من الله القوى الكريم . وتبدأ الصلاة التى تؤدى خمس مرات فى اليوم بأول سورة فى القرآن الكريم « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم » وتخلق الصلاة فى الإنسان عقيدة عبادة الله وإطاعة أوامره ولو كانت تتعارض ورغباته الشخصية أو مستلزمات طباعه الخاصة أو تقاليد قومه الذين يعيش بينهم ، كما تبث فيه فضيلة الصبر على المكاره ، وعدم اليأس ، وتدعو إلى التماس القوة من نبع القوة الأعظم إذا ما خانته كل الوسائل ، فالإنسان الذى يعتمد على الله لا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا ، ويملك من القوة ما يواجه به أعظم المشاكل دقة وخطراً.

وأهم أغراض الصلاة أن الإنسان يتعلم الاعتماد على الله فى كافة شئونه ، فهو سبحانه وتعالى فى أعمق الأعماق من قلوب المسلمين ، لا على شفاههم فقط . فالمسلم يسأله المعونة فى كل لحظة ، ويطلب هدايته فى كل أمر من أموره ، ومن لا يعتقد فى هداية الله لا يعتقد فى وجوده على الإطلاق . ألا نساق إلى غمار الشدائد الفينة بعد الفينة ؟ ألا يكتنفنا الظلام فى هذه اللحظات ؟ فمن الذى ينير لنا هذه الظلمات ؟ إنه الله وحده . وإن الالتجاء فى طلب المعونة إلى الله فى كل أمر يزود الإنسان بالسلاح المعنوى ، وهو ما تهدف

يكون الايمان بالله وحده هو القاعدة الحقة . وإن شعلة هذا الإيمان لتظل متقدة بخشية الله ، التى توقظها فريضة الصـــلاة الإسلامية فى القلب البشرى ولا يرضى الإسلام لهذه الخشية الغريزية فى صميم الطبع البشرى ، أن تخمد ستة أيام فى الأسبوع ثم تستيقظ فى اليوم السابع ، لأنها جذوة لا تظل متقدة مالم ينفخ فيها من لحظة لأخرى . فالصلاة لذلك جزء من أعمال الإنسان اليومية ، فصلاة الصبح التى تقام عند النهوض من النوم تكون أول عمل للإنسان فى يومه ، وصلاة العشاء التى تؤدى قبل النوم تكون آخر أعماله اليومية ، وبين هاتين الصلاتين صلوات أخرى تقام فى ساعات العمل أو الاستجمام ، وبهذه الوسيلة الإسلامية ينتقل الإنسان من بين مشاغله الدنيوية إلى المثول بين يدى الحضرة الإلهية ، ويستيقظ فيه — خلال العجيج والاضطراب اللذين يدفعانه إلى نسيان الله — الاعتقاد بأن هناك ذاتا عليا هو مسئول أمامها عن كل ما يعمله . تذكره فى ساعة نصره أنه لا شىء سوى مخلوق ضئيل من خلق الله ، وفى ساعة فشله أن هناك ملاذا يلوذ به ، وأن ليس هناك ما يدعوه إلى اليأس ، والصلاة لا توقظ فى الإنسان الاعتقاد بالله فقط ، ولكنها تزيد من حماسه لعمله ، وتجعله يعود إليه بفكر متجدد النشاط .

وما فريضة الصلاة التى يفرضها الإسلام ؟ إنها تتيح للفرد

معتنق كل دين أن الله كلم بعض الرسل فى الأيام الغابرة ، غير أن الإسلام وحده دون سائر الأديان الأخرى ينبئنا أن الله سبحانه وتعالى ما يزال يكلم من يصطفيهم من عباده ، كما كان يخاطبهم فى سالف الأيام ، وتقوم المسألة طبيعياً على أنه مادام سبحانه وتعالى يسمع لصلاة الناس ، كما كان يسمع من قبل ، فلم لا يخاطبهم اليوم كما خاطبهم بالأمس ، ولذا فإنه على الرغم من انقطاع الوحى والنبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا لا يعنى أن الله امتنع عن التكلم بعد ذلك ، إنه مازال يكلم من اصطفاهم لأنه الكليم والكلام من صفاته ، والصفات الإلهية لا تبطل .

ولا تبعث الأنبياء اليوم لأن الدين قد تم ببعث النبي الكريم ، ولكن النبوة والوحى يختلفان ، وإنه لخطأ أن نخلط بين انتهاء النبوة وانتهاء الوحى ، فالوحى معروف فى أبسط مظاهره للأنبياء وغير الأنبياء ، أما الوحى فى أسمى مراتبه فهو الخاص بالأنبياء والرسل . وهذا هو السبب فى أن الإيمان بالله لم يصبح قوة فعالة إلا فى الإسلام . والاعتقاد بأن الله أوحى إلى الناس وخاطبهم ، وأن هذا ليس مظهراً عاما من مظاهر الإنسانية ، يسلب الإيمان بالله كل حيوية ، والواقع أن الله والدين قد نبذا ظهرياً كما لو كانا من الآثار البائدة ، وأصبح الوحى أسطورة لا حياة فيها ولا قوة ، ولكن الإسلام يؤكد الوحى ويقيمه على أسس علمية ثابتة ، فالوحى ــ أولا ــ طبقاً لما جاء فى القرآن الكريم ليس منحة فردية

إليه الصلاة فى الإسلام ، فالصلاة تحقيق لرغبة الروح الكامنة ، تلك الرغبة التى يعمل الإسلام على أن تمهد للقلب البشرى سبيل الهداية إلى الطريق المستقيم ، سبيل التقدم قدما نحو هدف الحياة الأسمى ، وهى تسمو بالروح إلى أعلى مراتب السمو ، لأن عقيدة المسلم فى الحياة ليست عقيدة تخاذل وتقاعس ، ولكنها عقيدة النضال المستمر للتقدم نحو مايهدف إليه من الكمال . وهو فى كل خطوة يردد « الحمد لله » وما كانت هذه العقلية إلا ليعيش الإنسان مع بيئته فى سلام ، على ألا يكون جامداً أو عبداً لبيئته . بل ليجاهد ويكافح فى حياته ليسيطر عليها ، وعلى ألا يعمل للسلام دون الرقى ولا للرقى دون السلام ، ولكن ليعمل لهما معا ، فمثل هذه العقلية التى تخلق فى الأفراد عامة، لابد وأن تتحول يوما إلى سجايا قومية ، إذ الأقوام تتألف من الأفراد . وعندما تخلق مثل هذه العقلية فى أفراد شعب ما ، فإنها تصبح عقلية هذا الشعب . ولو أراد الإنسان أن يرى مدى التغيير الذى يمكن أن يحدثه الإسلام وجب عليه أن يدرس التقدم الشامل الذى قدمه المسلمون السابقون للعالم .

وليست الصلاة هى الوسيلة الوحيدة التى بها يحفظ الإسلام الإيمان حيا فى قلب الإنسان ، فيصبح الدين تبعاً لذلك القوة الفعالة فى حياته ، بل هناك كذلك العلاقات الدينية المثلى التى تمت للإسلام ، وهى أنه يظهر من حين لآخر قوم لهم وعى إلهى يسمون بأنفسهم حتى يدنوا من الله ويؤمنوا به إيماناً عميقاً . والاعتقاد السائد عند

السموات والأرض » (٧ : ١٥٨) « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (٣٤ : ٢٨) « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢١ : ١٠٧)

كان النبي الكريم رسول الله كغيره من الأنبياء والرسل ، إلا أن بعثه كان حدثا فى تاريخ النبوة ، فبه انتهى يوم النبي المحلى وطلع على العالم يوم النبي العالمى الذى يعمل على جمع الشعوب المختلفة فى شعب واحد . وبذلك تحققت الفكرة المثلى ، فكرة توحيد الجنس البشرى وربطه برباط واحد فبلغت حد الكمال ، وذهبت بدداكل الحدود الجغرافية وكل فروق الجنس واللون ، كما أقيمت أسس نظام توحيد الجنس البشرى بهذه الحقيقة العظمى وهى أن الجنس البشرى واحد ، وأن الناس حيثما وجدوا أمة واحدة ، ولم تكن مثل هذه الفكرة لتتحقق مالم يتقرر انتهاء النبوة لأنه فى حالة بعث أنبياء جدد بعد النبي العالمى ، فإن هؤلاء الأنبياء يحتاجون إلى معونة هذا الفريق أو ذاك ، فيشطرون بذلك قاعدة الوحدة التى سعى الإسلام إليها ، فأرسل نبياً فرداً للعالم أجمع .

ولنؤكد الموضوع الرئيسى وهو أن الله ما زال حتى اليوم يكلم من اصطفاهم نسوق هذا الحديث الواضح « لقد كان فيمن قبلكم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد ، فإنه عمر » ب (٦٢ : ٦) وهذا يبين أنه على الرغم من أنه ليس هناك أنبياء بعد النبي عليه

لهذا أو ذاك من الشعوب، ولكنه منحة عامة للإنسانية ، فالمختارون الذين أوحى الله إليهم وكلمهم ظهروا فى كل الشعوب وفى كل العصور ، وعلى ذلك فإن الوحى يمنح للجنس البشرى كله . وثانياً ، يخبرنا الإسلام أن الوحى ما زال حقيقة واقعة ، وأن الله سبحانه وتعالى ما زال يخاطب من يختارهم ، والحاجة ماسة الآن إلى أمثال هؤلاء المختارين ليزيدوا من قوة الإيمان بالله ، ولا يطلق على هؤلاء الصفوة المختارة أنبياء لأنهم لا يأتون بدين جديد ، ولا يغيرون شيئاً من القانون المنزل ، والواقع أن انتهاء النبوة كان ضرورة لا تمكن بدونها أن تتم الوحدة الإنسانية بحال من الأحوال ، فما من أمة إلا جاءها رسول ، وعلى ذلك فإن النبوة كانت أمراً عاما ، إلا أنها — عظمت أو صغرت — لم تكن إلا منحة محلية ، كما لم تكن تعاليم كل نبى تلائم غير شعبه الذى بعث فيه . وقد شدت النبوة المحلية من أزر الوحدة الدوليه العامة ، وكلما اقترب الوقت كانت الحاجة ماسة إلى وحدة عامة أى وحدة عالمية ، ولم تكن تلك الوحدة ممكنة إلا ببعث نبى عالمى . نبى للناس كافة ، وبهذا وحدة تمكنت فكرة توحيد الجنس البشرى من أن تبلغ حد الكمال « تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيراً » (٢٥ : ١)

« قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك

ملحق الفصل الأول

مختصر تعاليم الإسلام

إله واحد وإنسانية واحدة

الاعتقاد بوجود الله أساس الإسلام، وهاك ثلاثة أدلة مختلفة تثبت وجوده:

١ — إن الشواهد المستمدة من العالم المادى توجب وجود خالق للعالم ومسيطر عليه، وتتركز هذه الشواهد فى القرآن حول كلمة «رب» وهى أول صفة من صفات الله نبه الوحى إليها، وبها يبتدىء القرآن، «اقرأ باسم ربك» وتبدأ كل سورة فى القرآن بالبسملة «بسم الله الرحمن الرحيم»

وكلمة رب تترجم عادة بكلمة «لورد Lord» للاختصار، ومعناها كفالة الشيء وتعهده فى تدرجه حتى يبلغ هدفه من الكمال وعلى ذلك فكل ما يخلق يكون له طابع خلق السماء فى خاصية تدرجه من الصغر إلى الكبر حتى يبلغ التمام، فالنشوء والارتقاء الذى ثبت أنه حجر عثرة فى طريق الديانات الأخرى جعل فى الإسلام أساس الاعتقاد فى الله واستعمل كبرهان على الغرض والحكمة من الخلق، فقانون التماثل الذى يسيطر على العالم رغماً

الصلاة والسلام ، فإن الله سبحانه وتعالى يكلم من يصطفيهم من عباده المسلمين، وليس ذلك فقط لأنه الكليم كما أنه السميع البصير، ولكن لأن الاقتناع الحق بأن الله موجود يُغرس في القلب بكلامه ، وبمثل هؤلاء الذين يصطفيهم الله يستقر الإيمان القوى الخالد . وهؤلاء القوم هم مجددو الإيمان في الناس ، وقد جاء في حديث أنهم يبعثون في أول كل قرن « ويبعث الله مصلحاً على رأس كل قرن يجدد على الأمة أمر دينها » (ا . د : ٣٦)

سويته ونفخت فيه من روحى »فروح الإنسان تحن لله تبعاً لذلك ففيها غريزة عبادة الله والالتجاء إليه لطلب عونه « إياك نعبد وإياك نستعين » فالناس حتى المشرك منهم يلجأون إلى الله فى المحنة والشدة . « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » . « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » ويغرس فى الإنسان كذلك ثقة بالله ترشده فى الظلمات والشدائد « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم » وحب الله يدفع الإنسان لخدمة الإنسانية « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » والثقة بالله هى النبع الذى لا يفشل فى تقوية الإنسان فى ظروف فشله « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا

عن التنوع الهائل ، ووجود التحكم الصارم فى الطبيعة من أصغر ذرة إلى أعظم جرم ، والشواهد المماثلة الأخرى ، لتذكر فى كل صفحة من صفحات الكتاب الكريم . « الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فأرجع البصر هل ترى من فطور ، ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز الحكيم » ، « والشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان » .

٣ — والنوع الثانى من الشواهد طبقاً لما جاء فى القرآن يتعلق بالنفس البشرية التى يغرس فيها الشعور بوجود الله . فهناك هاتف يهجس فى نفس الإنسان دواما : أم خلقوا من غير شيء ؟ . أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ ألست بربكم ؟ وهكذا يظهر الشعور بالله كجزء من الطبيعة البشرية ، ويذكر هذا الشعور فى بعض الأحايين فى عبارة تدل على قرب الروح الإنسانية من روح الله قربا لا يتصور : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » « ونحن أقرب إليه منكم » ، وهذا يدل على أن الشعور بوجود الله فى نفس البشر أوضح من الشعور بوجودهم ، وهذا الشعور يختلف بلا شك باختلاف الطبائع فيتبع شفافية النفوس وظلمتها ويمكن تدعيم هذا البرهان بتوضيح أن هناك شيئاً أكثر من مجرد الشعور بوجود الله ، فروح الله قد نفخت فى الإنسان « فإذا

فى تعدد الآلهة « وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم »
«وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد، فإياى فارهبون »
« يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ،
إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح
منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله
إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى
الأرض وكفى بالله وكيلا » ؛ وما كان الله أبا أحد وما كان له من
ولد « لم يلد ولم يولد » « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض
وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن
يتخذ ولداً ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن
عبداً » ولا يسجد إلا له وحده « أو لم يروا إلى ما خلق الله من
شىء يتفيئوا ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ،
ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم
لا يستكبرون » ويتوجه إليه وحده بالصلاة « إياك نعبد وإياك
نستعين » « قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحداً » والطاعة العمياء
للأولياء ورؤساء الدين محرمة « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا
من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ،
لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » والله خالق كل شىء « قل الله
خالق كل شىء وهو الواحد القهار » وهو رب كل شىء « الحمد لله
رب العالمين » والمسيطر على كل شىء « وكان الله على كل شىء مقيتا »

سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون »

٣ — قدمت تجربة البشرية الروحية العليا الدليل الحق الواضح على وجود الله ، فقد قدم الله نفسه للانسان ، فالغاية والحكمة من العالم لتدل على أنه من الواجب أن يكون هناك إله ، ولا تؤدى إلى الاعتقاد الجازم بأن الله موجود ، وليس فى النفس الإنسانية الكفاية لتؤدى إلى هذا الاعتقاد الجازم ، ولا تكفى كذلك لاعطاء الثقة بوجود الله ، إنما وحى السماء هو الذى أدى إلى أعظم حقيقة للحياة وهى وجود الله ، وألقى نوراً ساطعاً على صفاته ، وقاد الانسان إلى الطريق الذى إذا سار فيه أحس وجوده سبحانه وتعالى كحقيقة فى حياته ، وأعانه على أن يتصل به ، وقد غيرت حقيقة وجود الله من حياة الإنسان ، ووهبته قوة روحية لا تقاوم مكنته من أن يؤثر فى حياة الآخرين كذلك، ويعتبر تقديم الله نفسه للإنسان فى نظر الإسلام تجربة البشرية العامة ؛ تجربة البشر فى جميع الشعوب والممالك والعصور، وإن هذه التجربة الروحية البشرية العامة لهى التى رفعت البشرية من الحضيض إلى أعلى مراتب التقدم الخلق والمادى كذلك .

إن الله لا يحده مكان، ولا شبيه له «ليس كمثله شىء»، ويرى كل شىء ولا يراه الناس ، « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » وهو أحد ، فلا يفكر المسلم فى تثنية أو تثليث طبيعة الإله ، ولا

والنهار » وقد خلق الإنسان طاهراً ، فما ولد آثماً ، ولكنه يحمل الخطايا بأفعاله .

الثقة في وحي السماء هي أساس جميع الديانات ، فما عرف الإنسان الله وما اتصلت روحه بروحه سبحانه إلا عن طريق الوحي. وقد أظهر الله نفسه للانسان بإرسال عباده الذين اصطفاهم في كل أمة إلى الناس « ولكل أمة رسول » ،« إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وللوحي ثلاث صور ، وأعلى مراتبه الاتصال بروح القدس وهذا وقف على الأنبياء ، وأدنى مراتبه التماع فكرة في الذهن أو حلم أو إلهام وقد يوحى إلى النساء كما يوحى إلى الرجال « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ، فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم » « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » ، « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » ولم يبعث الله إلى الناس إلا بشراً ، فالبشر وحده هو الذي يكون قدوة للناس « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » .

وهو رحيم ودود « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود » ورحمته تتسع لكل شيء « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » وينبغى ألا يقنط أشد الناس إسرافا من رحمته « ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » وهو يعلم الغيب، فيعرف مايظهر الإنسان وما يبطن وكذلك ماهو فى العقل الباطن « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » وهو قادر وفى كل مكان « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم » وهو أقرب إلى الإنسان من نفسه .

وخلق الله الإنسان فى أحسن تكوين وجعله إماماً فى الأرض « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون » « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » وقد سخر كل شيء للإنسان ، كما سخر له قوى الطبيعة : « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل

عليك ومنهم من لم نقصص عليك » والمسلم من يعتقد فى جميع الرسل «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبرهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» ، «لانفرق بين أحد من رسله »

وكان بعث رسول إلى كل أمة الخطوة الأولى ، ثم بُعث رسول عالمى ، رسول واحد للناس كافة « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » ، « تبارك الذين أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، « وما هو إلا ذكر للعالمين » لقد حل الرسول العالمى مكان الرسول المحلى وكان الغرض الأكبر الذى يهدف إليه الوحى هو فكرة توحيد الجنس البشرى ، وعلى ذلك فالصورة الإنسانية للوحى ليست جعل العمل الصالح هدف الإنسانية فقط « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفى الرقاب » بل وتوحيد البشرية، وليس فى الاستطاعة بلوغ ذلك بأية وسيلة أخرى .

وعلى ذلك فالإسلام يهدف إلى رفع الجنس البشرى حتى يتسنم الذروة ولذلك يعتبر الدين القيم « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » فهو يلقى ضوءاً كاملا على أركان الدين ووجود الله ، وصفاته وطبيعة الوحى ، وجزاء الخير والشر ، والبعث بعد الموت لذلك يعتبر دين العالم النهائى . ويجب

الناس جميعاً أمة واحدة « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ولا يوثر فى رفعتهم أو انحطاطهم تباين قبائلهم أو اختلاف ألوانهم وألسنتهم ، وإن أفضل الناس أحسنهم معرفه لحقوق غيره ، وإن الله رب العالمين قد منحهم كل شيء ، لا مايحتاجون إليه من قوت لأجسادهم فقط بل وما يحتاجون إليه لتقدمهم الروحى، ولذلك فهو يبعث المبشرين والمنذرين إلى جميع الأمم « ولكل قوم هاد » « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا »، « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » وقد ذكر القرآن الكريم أنبياء لم يذكروا فى الكتاب المقدس « وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون »، « وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم . . . » وتكلم عن بنى حبشى « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » وتحدث عن نبى عاش عند ملتقى النيل « وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً » وذكر القرآن أن هناك أنبياء لم يذكروا بالاسم « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك »، « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا

الفصل الثاني

المشكلة الاقتصادية

لم يكتف الإسلام بوضع أساس ثابت الدعائم لنظام السلام العالمى بأن خلق ثقة عظمى فى الله، وبأن جعل الشعور به سبحانه يتغلغل فى قلب البشر بأن قرب بين العناصر البشرية المتنافرة وألف بين الشعوب والأجناس فأصبحوا بنعمته جنساً بشرياً واحداً وشعباً إنسانياً موحداً ، بل فصل الإسلام التفاصيل الضرورية لذلك النظام ، وبين السبل التى تؤدى إلى نظام اجتماعى صحى ، وإلى تنسيق سياسى منطقى ، وهما أهم ما تحتاج إليه الحضارة الإنسانية الثابتة .

وتحتل المشكلة الاقتصادية من النظام الاجتماعى مكان الصدارة لأنها المسألة الخطيرة التى تشغل أذهان الجميع ، وقد حملت حضارة الغرب المادية حالة من اضطراب العلاقات الدولية فى يد ، بينما حملت فى اليد الأخرى حالة الحرب بين الطبقات فى كل شعب ، وعلاوة على كل العيوب الأساسية لهذا النظام ، فإننا نرى أن النظام الاجتماعى الاقتصادى لدول الغرب قد انتهى إلى طرفى نقيض بسبب عجزه عن سد حاجات الأوضاع الجديدة . فهو إما حرب

عدم الخلط بين انقطاع النبوة وانقطاع الوحى ، فالإيحاء لغير الأنبياء حقيقة ثابته ، فباب الوحى مفتوح دواما ، بينما النبوة التى أتمت رسالتها قد انتهت ، ويعبر القرآن عن ذلك بالبشرى « الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم » ويعبر عنه الحديث بالمبشرات ، وفى حديث آخر قيل عنه إنه جزء من النبوة ، وبيّن حديث واضح استمرار الوحى « لقد كان فيمن قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر » ومن يخاطبه الله يقال له فى الاصطلاح الإسلامى محدَّث ، والمحدَّث مصلح يهيؤه الله لدفع الأخطاء وإضفاء أنوار جديدة على الحقائق الدينية العظمى ، وقد ورد أن مثل هذا المصلح يظهر بين المسلمين فى أول كل قرن . وليس الدين أداء طقوس دينية صعبة ، ولكن الدين أن تحيا حياة طيبة ، تنظر خلالها إلى حقوق الآخرين نظرة اعتبار ، إن الخير ينبع من القلب الطيب ، ومن ثم فإن الحاجة إلى الإيمان هى التى تسيطر على القلب والمؤمن من لا يدخر وسعاً فى عمل الخير حتى مع عابر السبيل ، فإن إقرار السلام فى الطريق بعض الإيمان ، والشخص الذى لا يحب لغيره ما يحب لنفسه لا إيمان له . وليكون الإنسان مسلماً حقاً ، يجب أن يعيش مع الآخرين فى سلام ووئام ، لا يضرهم ولا يؤذيهم « فالمسلم من سلم الناس من يده ولسانه » ، وإن إيذاء الآخرين والإضرار بهم ولو باللسان نوع من الكفر .

وتقف فى الجانب الآخر روسيا وهى التى تعتبر أساساً جديداً بين أسس السلام فى العالم. ولن يمنع حدوث هذا إلا تطورات فى المثل الاقتصادية لهذه الدول، وعلى ذلك فلن يكون هناك سلام دائم مادامت المشكلة الاقتصادية لم تحل بعد. ومن المحتمل أن تستعد هذه القوى لحرب أخرى وهى حول مائدة السلام. وإذا ماأردنا أن نوقف هذه الحروب إلى الأبد وجب علينا أن نتلمس الوسائل وطرق الإصلاح بين هذه الطبقات المتحاربة فى العالم أجمع، وما المسيحية كدين — ولا المدنية المادية التى أنجبتها المسيحية — بمستطيعة أن تقدم مثل هذا الإصلاح المرجو. إذ أن اقتراحات السلام فى هذه الحالة أيضاً فى يد الإسلام مرة أخرى. لأن النظام الاقتصادى الذى جاء به الإسلام وحده هو الذى يوفق بين رأس المال والعمل، والذى يقدم الإصلاح المنشود، فيسود السلام الحقيقى الأرض قاطبة. وقد كتب كثير من كتاب الغرب أن الإسلام يوائم بين المثل العليا الاقتصادية التى بسببها تتطاحن أوروبا، فقال جيب فى كتابه (حيثما يكون الإسلام) Whither Islam « مازال الإسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتغاليين المتقابلين فى دنيا الغرب — فهو يساوى ويوائم بين الاشتراكية القومية الأروبية وشيوعية روسيا، فلم يهو بالجانب الاقتصادى من الحياة إلى ذلك النطاق الضيق الذى أصبح من مميزات أوروبا فى الوقت الحالى والذى هو اليوم من مميزات روسيا أيضاً».

رأس المال ضد العمل أى حرب البرجوازيين (الطبقة المتوسطة) ضد الدهماء ، أو حرب العمل ضد رأس المال — أى قتال الدهماء للبرجوازيين . وستستمر هذه الحرب ناشبة فى جميع دول الغرب بعد أن تنتهى حرب السيف ، سيصبح العالم عندئذ فى سلام ظاهرى ، إذ أن من الجلى أن تيار الحرب سيختفى على السطح فقط ، بينما يعمل التيار الخفى عمله فى حياة الشعوب . إن السيف مشحوذ ما فى ذلك ريب ، فالبغى وظلم الإنسان للإنسان مدخران للحرب بين الطبقات وحرب الفناء . انقسم الغرب من جراء الحرب فى سبيل السيادة الاجتماعية إلى معسكرين ، فبينا نرى اليد العليا لدول الغرب الرأسمالية حيث العمل ضحية الطغيان فى جانب ، فإننا نرى روسيا تقف فى الجانب الآخر ، حيث أخذ الدهماء يثأرون من البرجوازيين فى ثورة وغضب . ولن يقف الأمر عند هذا الحد فإن انتصار العمال فى دولة يحيى الأمل فى إمكان إحراز انتصارات مماثلة فى الدول الأخرى ، وبعد أن تكون الحرب بين شعب وشعب فإنها تتسع وتتطور إلى حرب عالمية ، وها هو السوفيت قد تأهب لشن الحرب على دول أوروبا جمعاء ، ومع أن ضرورات الحرب المستمرة الآن قد خلقت اتحادات جديدة فأصبحت روسيا حليفة لكل من انجلترا وأمريكا ، فإن حرب الطبقات المنتظر اندلاعها عقب إقرار السلام سترمى بحلفاء اليوم أنفسهم إلى معسكرين متضادين . فيقف الإنجليز والأمريكان الحلفاء الحقيقيون فى جانب

أن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط ، وأن للحياة قيمة أعلى تتداعى أمامها كل قيمة مادية . وما لم تعلم هذه الحقيقة فستجلب المنافسة الاقتصادية بين الأفراد والشعوب الويل والدمار بدل الهناءة وراحة البال . نسيت الشعوب المتحضرة فى تسابقها من أجل المنافع الاقتصادية هذا الدرس ، ولذا فإن كلا منها يسعى لتدمير الآخر والقضاء عليه .

إن النظام الإسلامى - ثانياً - هو عبارة عن مشيئة السماء ؛ فله لذلك الاستقرار الذى لا تتسامى إليه النظم التى من وضع الإنسان . إن كل نظام اجتماعى فى العالم يستند إلى قوة دنيوية لإنفاذه فى حين أن النظام الاجتماعى الإسلامى يقوم دون أن يظاهره حكام أو حكومات ، فالشيوعية لم تقم فى روسيا بسبب مطابقتها لعقلية الشعب ، بل بقوة السوفييت الجبرية ، وكذلك قامت الفاشية ودامت دولتها ما دامت هناك قوة دنيوية تظاهرها ، وظلت الرأسمالية فى أوروبا عموماً متماسكة بسبب مواردها المالية الهائلة ومظاهرة الحكومات الديمقراطية لها ، فالقوة الحقيقية فيها لا توجد فى أيدى عامة الشعب ولكن فى أيدى أولئك الرأسماليين الكبار سواء أكانوا يهوداً أو غير يهود ، وعلى النقيض من ذلك نظام الإسلام الاجتماعى الذى يستند إلى الدين ، فإنه يخضع للعقل لا للسلاح ولا للقوة السياسية ؛ فالمسلمون فى جميع أرجاء العالم الحاكمون منهم والمحكومون يخضعون لقوانين اجتماعية واحدة . وذلك لأن نظام الإسلام

وقرر الأستاذ ماسينيون .

« إن لدى الإسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة وذلك بفرض زكاة يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض عمليات المبادلات التى لاضابط لها ، وحبس الثروات كما يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجات الأولية الضرورية ، ويقف فى نفس الوقت إلى جانب حقوق الوالد والزوج ويشجع الملكية الفردية ورأس المال التجارى ، وبذا يحل الإسلام مرة أخرى مكاناً وسطاً بين نظريات الرأسمالية البرجوازية ونظريات البلشفية الشيوعية » (صفحة ٣٧٨ — ٣٧٩) وعلى ذلك فالإسلام هو بمثابة خالق السلام بين النظم الاقتصادية المتنازعة فى دول الغرب المختلفة . فلنظامه الاجتماعى خصائص لانجدها فى غيره ، فهو لا يدع العوامل الاقتصادية تشغل الذهن البشرى بحيث تنسيه القيمة العالية للحياة لأن من أول مايتلقاه المسلم من الدروس هو أن واجب الله مقدم على كل واجب سواه وأن عليه أن يترك العمل الذى يباشره مهما عظم إذا ما دعاه المؤذن للسجود لبارئه . وهذا النداء لا يجلجل فى البكور فقط ولا فى العشى عند ما يأوى الإنسان إلى فراشه ، بل يتردد أثناء انهماك الإنسان فى عمله اليومى ، وإن المسلم ليشعر حقاً بحقيقة وجود الله حينما يلبى هذا النداء ، وإنه ليعلم أن عليه أن يركز كل انتباهه فى عمله ليكسب عيشه ولكنه يعلم فى نفس الوقت

أن يتنفسوا كما يتنفس أقرانهم ممن يملكون الثروات ، ولتحقيق هذه الغاية ثبتت في عقول الأغنياء والفقراء على السواء أن امتلاك قناطير الذهب والفضة لا يرفع من شأن الإنسان كما لا يحط الفقر من قيمته ، ولا وزن لهذه التغيرات التي تطرأ على الثروة عند الله وينبغي ألا يكون لها أهمية عند أولئك الذين يؤمنون به ، وهاك بعض الآيات التي تبين ذلك .

« فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن »

« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » .

ولذا فإن أول ما يعمله الإسلام إذ يأتي بنظام اجتماعي جديد هو أن يصور جمع المال للعقل البشري في صورته الحقيقية ، إنه شيء لا يهمل « ربنا آتنا في الدنيا حسنة » كما أنه غير محرم « قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وقرّر أن المال ما هو إلا وسيلة للعيش ، فينبغي ألا يوضع في أيدي السفهاء « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ، التي جعل الله لكم قياماً ، وارزقوهم فيها » ولكنه نبه في نفس الوقت إلى أن المال

الاجتماعي قد تغلغل في عقول الناس وأضحى لا يحتاج إلى قوة دنيوية تشد من أزره وتفرضه على الناس فرضاً .

وثالثاً ـ أثبت النظام الاجتماعي الإسلامي أنه النظام العالمي طوال القرون الثلاثة عشر التي عاشها ، فالمثل الاجتماعية للشعوب الإسلامية العديدة من الشرق البعيد إلى أقصى الغرب بجميع اختلافات أجناسها وألوانها ولغاتها هي نفسها في جميع العالم . والأعجب من ذلك أنه بينما حدثت تطورات عديدة في المثل الاقتصادية للشعوب الأخرى خلال المائة سنة المنصرمة بقي النظام الاجتماعي بلا تغيير على الرغم مما أصاب ثروات الشعوب الاسلامية في العالم من التغيير ، وهذا يبين في جلاء أن لهذا النظام قوة فطرية تجعله لا يتأثر بجميع التقلبات التي تصيب ثروات الشعوب التي تدين به . فهو ليس النظام العالمي فقط ، بل هو النظام العالمي الوحيد الثابت .

والخاصة الرابعة لنظام الإسلام الاجتماعي هو أنه يهدف إلى حفظ المساواة كلما كانت هذه المساواة في حيز الإمكان ، فهو يساوي بين جميع أفراد الدولة ، يرفع الأدنى إلى المستوى الأعلى ويعمل على إغناء الفقراء ، وهو في هذه الناحية يتعارض والبلشفية التي تسعى للمساواة بإفقار الأغنياء وخفض الأعلى إلى الأدنى .

وإن نظرة عابرة إلى الوحي القرآني في الفترة الأولى من بعث النبي الكريم توضح كل شيء ، فالإسلام لم يأت لرفع الظلم ومد يد العون للفقراء بل جاء لرفع الفقراء إلى مستوى أعلى حيث يمكنهم

ولا النظام، ولسار كل شيء إلى الفوضى والاضطراب. إن التفاوت في العقول وفى القدرة على العمل معترف به فى ذلك النظام الاجتماعى الذى يقوم على الغرض القائل بوجوب المساواة التامة؛ وقد تستطيع بعض الحكومات أن تقسم الثروة بالتساوى، ولكن بنزع ثروات الأغنياء وإيقاع الظلم بهم، كما تظلم بعض الحكومات الفقراء والمساكين. وهذا ليس حلا على الإطلاق. ويهدف النظام الاجتماعى الإسلامى إلى التقسيم العادل الصحيح للثروات، فهو يفرض نظاما فريداً لهذه الغاية. ومع أن تحطيم الرأسمالية أو بمعنى آخر انتزاع ثروات الأغنياء وضمها إلى أموال الحكومات يتم باسم المجموع، إلا أنه إجراء على جانب عظيم من الحيف، يتنافى مع روح الإسلام الذى فرض فرضاً إجبارياً للإحسان، وهو ليس إجبارياً بمعنى أن هناك قوة تقوم على جبايته، ولكنه إجبار أدبى، فتطورت عقلية البشر، فبعد أن كان ما يكسبه الإنسان يعتبر ثمرة عمله ولا يمكن أن يحرم هذه الثمرة. فإنه بعد أن أنفق ما يحتاج إليه من كسبه ادخر مبالغ معينة واعتبرها رأس ماله، ففرضت على ما كسبه وادخره حصة ثانية يدفعها للدولة لمعاونة إخوانه الذين يقلون عنه مالا، فكانت هذه الحصة عوناً للفقراء من غير أن تفقر الأغنياء، وهذه شريعة السماء فليسجد الإنسان لإرادة الله.

ويصحب جمع المال عادة حمل بعض الأوزار، لأنه يغرس فى

وسيلة لا غاية ، فللحياة قيم أعلى من الثروة ، لا يجب أن تفقد فى سبيل جمعها « ورحمة ربك خير مما يجمعون » يجب ألا يشغل جمع المال القلوب ، بل يجب أن تكون القلوب معدة لله وحده .

إن فى النظام الاجتماعى الإلهى الموحى به إلى الناس اعتباراً آخر فى غاية من الأهمية ، وهو أن هناك تبايناً فى الطبيعة . ففيها فروق واختلافات على الرغم من الاتساق المعروفة به ؛ فما من رجلين متشابهين ، وما عقلاهما بمتساويين ، وما قدرتهما على العمل بواحدة ، وما فرصتهما له بمتكافئة ؛ لبعض الناس عقول تمتاز عن عقول سواهم ، ولبعضهم قدرة فائقة على العمل ، بينما وجد البعض الآخر فى بيئة تساعده على أن يثمر عمله أطيب الثمر ، فهذه الفروق لا يمكن أن تمحى ، ويجب أن تقبل كإحدى حقائق الحياة .

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » .

« والله فضّل بعضكم على بعض فى الرزق » .

لا يمكن محو هذه الفروق بأى وسيلة من الوسائل وحتى بلشفية روسيا لم تستطع أن تعمل شيئاً حيالها ، فستالين والفلاح الحقير أو العامل الذى يعمل فى منجم لا يتساويان ، ولا يمكن أن تسير الدنيا سيرها إذا لم يكن لبعض الناس السيطرة على البعض الآخر ، ولو لم توجد هذه الفروق لما كانت الحكومات

والوصاية ، والمجال الحيوى ، ونحو ذلك حقاً مشروعاً ؛ والقوة الحقيقية فى دولة ماهم الرأسماليون العظام ، مستترين فى ثياب الوطنية ، وهم يساعدون الرأسمالية بقروضهم الهائلة ، ويدفعون تكاليف الحروب ضد الشعوب الأخرى ، وقد عالج الإسلام هذا بتحريم الربا ، وسنتكلم عن ذلك فى حينه .

ظهرت حركة مقاومة الرأسمالية فى منتصف القرن التاسع عشر ، أى منذ مائة سنة على الأكثر ، وظهرت هذه الحركة باسم الاشتراكية ، ثم تطورت تدريجاً إلى مايعرف اليوم بالبلشفية ، وقد استولت على روسيا فى قبضتها بنفس القوة التى لا تزال الرأسمالية تقبض بها على الدول الأوربية الأخرى ، ولم تلق هذه الدعوة خارج روسيا إلا نجاحا ضئيلا ، ولذا تقوم روسيا لها بدعاية هائلة . والمستقبل وحده هو الذى سيقرر إذا ماكانت البلشفية ستعيش فى روسيا نفسها أولا . إلا أن هناك أمراً واحداً يصدم النفس بغرابته ، وهو أن البلشفية التى جاءت لتحرير الناس، لها من القيود ما للرأسمالية ، فقد تنحى الاستبداد القيصرى للاستبداد السوفيتى .

وما يزال السؤال الماثل أمامنا هو : هل حلت البلشفية المعضلة الكبرى لتوزيع الثروة بملكيتها للصناعات حلا نهائياً ؟ فإذا قلنا إن مشروع السنوات الخمس قد زاد الإنتاج فى روسيا إلى حد لا يمكن تصوره ، وعلى هذا فإن حالة ملكية الصناعات هى الحل

القلب حب المال والشغف به . ويمكن تطهير هذه الأدران بدفع جزء من أربعين من رأس المال فى كل عام لعون الفقراء ، وهذه هى الزكاة ، أى عملية التزكية والتطهير .

فإذا ماكان هناك حكومة إسلامية ، كان من واجبها جمع هذه الحصص من رءوس الأموال لتوزيعها على الفقراء والمعوزين ، وإذا لم يكن هناك حكومة إسلامية وجب تنظيم هيئة إسلامية تقوم بجمع الزكاة وتوزيعها على المحتاجين ، وإن مجرد اعتقاد الإنسان أن جمع المال عمل غير نقى ، وأن تطهيره لا يكون إلا بدفع ٢ ½ ٪ منه لعامل فعال فى أداء هذه الفريضة . وهذه هى الطريقة الفريدة المثلى التى كان الإسلام يوزع بها الثروات المكدسة . ولم يحاول أى نظام آخر قائم فى العالم مثل هذه المحاولة .

ولا شك فى أن مسألة القوة السياسية المتفرعة من مشكلة توزيع الثروات من أكبر المشاكل التى تواجهها البشرية ، فنظام الرأسمالية الذى يعتبر حجر الزاوية فى حضارة الغرب المادية أدى إلى تركيز الثروات فى أيد أقل فأقل ، وزاد من فقر المجموع ، وأصبحت القوة السياسية تسير فى ركاب الثروة ، كما أصبح السياسيون يقررون السلام أو يعلنون الحرب نزولا على أوامر رأس المال ، ودفع جشع الرأسماليين — وهم قادة القوة السياسية الحقيقيون — بشعوب كثيرة إلى هاوية العبودية . وأصبح السلب المنظم المستتر تحت ألفاظ مختلفة رنانة ، كالاستعمار ، والاحتلال ،

بالزكاة ، نظامه المفروض للبر - وليست الزكاة فقط عاملا من عوامل المساواة ، ولكنها أيضاً وسيلة من وسائل نشر العواطف الإنسانية السامية ، عواطف الحب والرحمة والمودة . التى تسعى صرامة قوانين الحكومات على نزعها من نفس الإنسان .

وهكذا سرى المال فى جسم السياسة الإسلامية سريان الدم فى شرايين الجسم الحى ، فإن الحصص الثابتة من أموال الأغنياء تحولت إلى القلب وتفرعت منه إلى كافة أجزاء الجسم السياسى ، وهو فى حاجة ماسة إليها . ففريضة الزكاة لا تعين فقط على إيجاد التقسيم الصحيح للثروة ، ولكنها تعمل كذلك على رفع شأن الشعب بأكمله .

ويجب أن يرسخ فى الذهن أن الزكاة ليست مجرد إحسان إجبارى ، لأنها نظام حكومى أو نظام أهلى فى عدم وجود حكومة إسلامية . وليس الفرد حراً فى محاسبة نفسه وإخراج الزكاة وإنفاقها حسب هواه ، إذ يجب أن تجمع الحكومة أو الهيئة الأهلية الزكاة ثم توزعها بعد ذلك على الجميع .

وليس مانح الزكاة مطالباً بأن يعطى نصيباً من ماله للمستحقين كصدقة ، ولكنه مطالب بأن يتبرع بنفس الحصة ، فإذا ما تجمعت حصص الزكاة وجب إنفاقها فى رفع مستوى الجميع .

ويسهبون فى القول أحياناً بأن ملكية الدولة للصناعات

للمعضلة ، كنا جد متسرعين فى إصدار حكمنا ، إذ مايدرينا أن هؤلاء الرجال الموكول إليهم تنفيذ المشروع ، ورجال الدولة ، لا يتحولون فى الغد القريب إلى طغاة مستبدين كطغاة الرأسمالية ، فالنفس البشرية تميل بطبيعتها إلى هذه الاتجاهات الاستبدادية ، فى حين أن النظام البلشفى لا يحمل فى طياته أى علاج رادع لهم . وهناك ما هو أجل من ذلك ، فالبلشفية التى جاءت لنصرة العامل تتنكر لأبسط قواعدها بحرمان العامل من جنى ثمار عمله .

وإن النظام الجامع لتوزيع الأرزاق بالتساوى على الجميع ، الخامل كالمجد ، والغبي كالذكى ، سيساعد ولا شك على إيجاد جو لن يلبث أن يصبح غير محتمل ، لمناقضته المباشرة للطبيعة وقوانين الطبيعة المعترف بها . ولا يمكن معرفة مساوئها فى يوم ، فقد مرت قرون لكشف عيوب الرأسمالية ، ولذا فإن مساوىء البلشفية لن تنكشف إلا بعد مضى وقت طويل .

لم يكن للإسلام فضل حل مشكلة المال فقط ، بل له كذلك فضل نشر المشاعر النبيلة ، وبناء الأخلاق الفاضلة ، التى عليها وحدها يمكن أن تقام أسس مدنية خالدة للجنس البشرى كافة ، فقوانين البلشفية الصارمة التى لا تعنى إلا بالجسد ، فتمده بما يكفيه ليعيش ، هى التى ستقتل مشاعر الرحمة والحب ، تلك الصفات السامية التى لا تجعل للحياة قيمة فقط ، بل تحول دون انحطاط البشرية إلى دركات البربرية المنحطة . وقد ذلل الإسلام كلا العقبتين

وستكون الملكية المتلكات التي هي نتيجة طبيعية للملكية العمل نتائج أسوأ من النتائج التي أتت بها الرأسمالية . وإن مساوىء الرأسمالية لتتعدد وتكثر عندما يتقلص وينقص عدد الرأسماليين ، وكلما نقص عدد الرأسماليين ازدادت المساوىء التي تأتي في ركاب الرأسمالية .

وعندما يصبح في الميدان رأسمالي واحد ، وليكن حكومة أو فرداً، فإن مساوى الرءأسمالية تبدو عندئذ في هيئتها البشعة . وليس هذا فقط ، فالفرد الواحد كالرأسمالي الوحيد في دولة ما ، يكون محتملا كالك للمتلكات والمصانع أكثر من الحكومة إذا ماقورن بينهما ، فإن من السهل أن يوجه إليه النقد فيصلح من أمره تبعاً لمصلحته . وليس الأمر كذلك مع الحكومة ، ففي استطاعتها أن تخنق (وغالباً ما تفعل) كل نقد تعتقد أنه ضد مصلحتها . وإن من المستطاع وقف كل ظلم في هذه الدنيا ، إلا أنه لا يمكن مطلقاً وقف ظلم حكومة ما وعلى الأخص إذا ماكانت هذه الحكومة هي الرأسمالي الوحيد في الدولة ، وإن القول بأن مثل هذه الحكومة الرأسمالية تعمل لصالح المجموع قول لا أساس له ، كهذا القول الذي يقول بأن الحكومة الأوتوقراطية تعمل لصالح من هم تحت سلطانها فقط . فالحكومة في الواقع شر لا بد منه يكسر من شرة العناصر الخطرة في المجتمع ، وإن بطشها لشديد الآن وفي كل حين . ولكنها تصبح من غير شك أشد بطشا وبغياً إذا ماكانت

والممتلكات وهى الحالة المقابلة للزكاة أو لنظام العشور فى النظام الاجتماعى الإسلامى ، هى خير نظام اقتصادى للعالم . وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هو : هل زادت هذه الملكية من ثروة الدولة ؟ .

كلما كد الإنسان واستخدم مواهبه وذكاءه فى عمله ، ازداد غنى وسيطرة على موارد الطبيعة أو الثروة بمعنى آخر . إلا أن امتلاك الدولة للصناعات والممتلكات يمحو جميع المشروعات الخاصة ، يقتل كل منافسة وخنق كل حافز للعمل الشاق الذى يحتاج إلى ذكاء . ويؤدى أخيراً إلى التراخى وعدم الاكتراث ، فلا ينتج غير منتجات رديئة الصناعة . ثم يهوى بالشعوب التى تطبق نظامه إلى هاوية الفقر .

وقد يكون الشعور الوطنى — الرغبة فى أن يعيش الإنسان فى وطن حر مستقل ذى سيادة — حافزاً إلى حد ما ، غير أنه لا يكون كذلك أيضاً إلا بوجود التنافس فى المضمار الوطنى .

وقد يقوى هذا الحافز كثيراً فى أوقات الحروب ، عندما تخشى الدولة أن تكتسحها دولة تفوقها مراساً وبأساً ، كما حدث فى روسيا . إلا أن اختفاء المشروعات الشخصية والملكية الخاصة فى أيام السلام يساعد كثيراً على التكاسل والتراخى . وهى حقيقة واضحة لا سبيل إلى انكارها ، فطن الشيوعيون لها ، فاضطروا إلى أن يعدلوا من أوضاعها الأولى وأن يشجعوا المنافسة بكل وسيلة .

أسس ديموقراطية ، فيحل بذلك كثير من صغار الرأسماليين محل رأسمالى كبير كلما مات مسلم ، والآية القرآنية التالية تبين هذا النظام « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » (٤ : ٧)

كان العرب قبل ظهور الإسلام يخضعون لتقاليد موروثة يقدسونها كل التقديس ، فكان لايرث منهم إلا من يستطيع امتشاق الحسام ، أما من لا يستطيعون خوض غمار المعارك وملاقاة الأعداء فكانوا يحرمون الميراث حرماناً . وكان هذا التقليد حرياً أن يبهر هؤلاء الناس الذين كان القتال بين قبائلهم شغلهم الشاغل ليل نهار وكانوا يعتبرون المرأة بعضاً من متاع الميت ينتقل إليهم بالميراث بدون معارضة منها كما هو الحال فى التشريع اليهودى .

ولكن عندما قام المؤمنون بالدفاع عن أنفسهم ضد عدوان الجزيرة ، كلها ظهر أن نظامهم فى التوريث هذا غير عادل ، فنزل تشريع جديد ساوى بين المقاتلين المجاهدين وبين اليتامى والأرامل .

وقبل المسلمون هذا النظام دون ريبة لاعتقادهم العظيم فى الله . وقسم النظام الجديد الوارثين إلى طبقتين : الأولى طبقة الأولاد والآباء والأزواج ، والطبقة الثانية طبقة الإخوة والأخوات ،

كل الموارد المالية المحروم منها الآخرون فى قبضتها . فإذا ما قلب وضع الحكومة فأصبحت المالكة الوحيدة للمتلكات والصناعات وضع فى يدها أخطر سلاح للبغى والطغيان، وعندئذ يكون ضررها أفظع من أضرار الحروب العالمية التى تواجهها الإنسانية اليوم .

ولا يتدخل النظام الإسلامى الاجتماعى فى شئون الملكية الخاصة للمتلكات والصناعات فلا يحرم الإنسان ثمار عمله بل يترك الميدان حراً أمام العمل الشاق والتجارب العقلية للتنافس . وهو يسعى إلى تحقيق التقسيم العادل للثروة بأن يفرض على الرأسماليين ومالكى الثروات أن ينزلوا عن حصة من ثرواتهم لصالح من هم دونهم مكانة فى المجتمع . ويرمى أيضاً إلى زيادة عدد الرأسماليين حتى يستعر التنافس بينهم جهد الطاقة فتعم الفائدة . وما الزكاة فى الحقيقة إلا عوناً للفقراء على أن يبدأوا أعمالهم برأس مال صغير ثم يزيدونه بذكائهم وجهودهم الشاقة المتواصلة ، وفضلا عن الزكاة فإن هنالك نظام التوريث الإسلامى ، وبه توزع الثروة على أكبر عدد ممكن ، فيزيد بذلك عدد صغار الرأسماليين ، وحتى بعد دفع الزكاة وهى $\frac{1}{40}$ من رأس المال كل عام، فإن الرجل الذكى المجد يترك عندموته ثروة لاتتسرب طبقاً لنظام الإسلام الإجتماعى إلى فرد واحد كما هو حادث فى معظم النظم التى تقول بتوريث البكر . فالإسلام يقدم بنظام التوريث إصلاحا مضاعفاً ، فيجعل الأنثى شريكة الذكر، ويأمر بتقسيم الثروة بين جميع الوارثين على

وكان على الحكومة أن تدفع كل دين ثابت بعقد صحيح عجز المدين عن سداده ، ولذا حرم النظام الإسلامى الاجتماعى الربا ، فتحريم الربا كان دائماً يقابله فى القرآن الشريف تشريف الإحسان لأنه أساس الشفقة الإنسانية ، بينما يقتل الربا كل مشاعر الشفقة فى الإنسان .

ومثل المرابى مثل من صرعه مس من الشيطان فلا يستطيع قياماً ، وهو فى الواقع لا يتردد فى تجريد المدين إذا كان فى ذلك إضافة مليم إلى ملايينه ، فأنانيته الفائقة تجرده من جميع مشاعر الرحمة وتجعل القسوة تتمكن من قلبه ، والإسلام على عكس هذا كلية .

وفضلا عن ذلك فإن الربا يؤدى إلى الكسل ، فالمرابى بدلا من أن يعمل عملا مجدياً أو يقوم بعمل يدوى شاق يصبح كالطفيلى يعيش من كد غيره .

ويقف الإسلام دائماً فى صف العمل فى المعركة المستعرة بينه وبين رأس المال ، وهو بتحريمه الربا يحاول أن يحفظ التوازن بينهما دون أن يسمح لرأس المال أن يستبد بالعمل ، وقد شرّف الله العمل ، فجاء فى كتابه الكريم « أحل الله البيع وحرّم الربا » فبينما يستلزم البيع العمل والمهارة وارتفاع الروح المعنوية فى الفرد ، فإن الربا يؤدى إلى الغباء والخداع والاستبداد ، وهدف الإسلام مساعدة كل معوز إذ أن فى تخفيف عوزه قضاء على الربا

وجميع من ذكروا فى الطبقة الأولى هم الوارثون المباشرون .

أما من ذكروا فى الطبقة الثانية ، فلا يرثون إلا إذا لم يكن ثم أحد ، أو لم يكن ثم بعض أفراد الطبقة الأولى ؛ وقد تتفرع الطبقتان إلى طبقات . أخرى فيحل الأحفاد وسلالتهم محل الأبناء ، ويحل الجدود محل الآباء ، ويحل الأعمام والعمات والخالات والأقارب محل الإخوان والأخوات .

وهناك مظهر ثالث لنظام الإسلام الاجتماعى غير تقسيم الثروة تقسيما عادلا ، وهو علاقة الدائن بالمدين ، فبينما يطلب من المدين أن يكون أميناً فى سداد الدين ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم أحسنكم قضاء » ، فإن على الدائن أن يكون فى منتهى السماحة والرفق ، وأن يرعى حالة المدين أكثر مما يرعى قرضه . وهدف الإسلام وجوب معاونة كل معسر .

فقد قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » وكان النبى الكريم وهو دعامة الدولة الإسلامية التى اتسعت فى آخر أيام حياته يطبق هذه النظرية أسمح تطبيق .

قال صلى الله عليه وسلم : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة ؛ اقرأوا إن شئتم النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإنما من مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا . ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتنى فأنا مولاه (٦٦ ـ ب) .

بها يختلف عن الديون العادية قليلا ، فهو فى الواقع حالة يشترك فيها العمل ورأس المـال ، وهذه المشاركة غير محظورة ، فإن النظام الاجتماعى الإسلامى يقول إن رأس المال والعمل يجب أن يشتركا معاً فى الربح وفى الخسارة ، فإن معنى دفع فائدة ثابتة هو أن رأس المـال يربح دائماً حتى ولو كان العمل لا يؤدى إلا إلى الخسارة .

ويعترض أحياناً بأن اشتراك العمل ورأس المال فى الغنم وفى الغرم غير عملى ، إذ يحتاج دائماً إلى مسك دفاتر ، بيد أن مسك الدفاتر ضرورة من ضرورات التجارة ، إذ الحسابات التجارية فضلا عن ذلك يجب أن يعنى بهـا لتقدير الضرائب ودفعها . وإن جميع الشركات المساهمة التى تقوم بالمتاجرة على نطاق واسع تمسك دفاتر ، وهذا النظام أنفع للصالح العام من نظام إضافة الفوائد إلى رأس المال ، ذلك النظام الذى يكثر من شرور الرأسمالية ، وهو عين الظلم للعمل ، والقروض التى تعقدها الحكومات أو الشركات لتنفيذ المشروعات الكبيرة ، كمد السكك الحديدية ، وحفر الترع وغيرها قد تتبع نفس الأساس .

وإذا ما قام نظام البنوك العام على أسس تعاونية ، يقرها نظام الإسلام الاجتماعى كان نعمة عظمى للبشرية .

وفى النظام الإسلامى الاجتماعى عدة عوامل تقلل من مساوىء الرأسمالية ولكن لن أذكر منها غير عامل واحد وهو العامل

وقد أنذر الربا « بحرب من الله ورسوله » (٢ — ٢٧٩) وليس التحريم مقصوراً على ما يسمي فنيا بالربا بل يشمل التحريم كل أنواع الفوائد ارتفعت أو انخفضت ، أضيفت الفائدة أو لم تضف إلى المبلغ الأصلي بعد مدد معينة . فالفوائد الربوية عند ما تتجمع تصبح حملا ثقيلا على الدائن .

وهذه حقيقة أثبتها تاريخ الديون فى كل دول العالم .

ويعترض بأن تحريم الفوائد يعوق سير الأعمال والصفقات التجارية كما يعوق تنفيذ المشروعات الأهلية الهامة ، ولنفرض جدلا أنه يعوقهما حقاً ، فهو يعوض هذا أحسن تعويض إذ يمنع الحروب فى العالم ، تلك الحروب التى لا تجلب للجنس البشرى غير الشقاء ، ولا يذكيها ويشعل أوارها غير القروض والديون الربوية ، وتعالوا بنا نلتمس الحقائق ، فإن التجارة سارت سيرها الطبيعى ، وانتشرت أوسع انتشار كما ازدهرت المشاريع الأهلية الهامة وعمت الحدود الشاسعة فى دول صدر الإسلام إبان عصورها الأولى ، حتى أضحت هذه الدول فى طليعة الدول العظمى المتسابقة فى سباق المدنية العالمية .

وهذا التحريم لا يتلاءم حقاً مع ظروف العالم الجديد الذى جاءت به مدنية الغرب المادية . ولكن النظام الأمثل الذى وضعه الإسلام نصب عينيه نظام عملى نجح تطبيقه عملياً قرون عدة فى صدر الإسلام . فربح رءوس الأموال التى لا تسير الأعمال إلا

ملحق الفصل الثانى

الوجهة الاقتصادية

شرّف النظام الاجتماعى الإسلامى العمل تشريفاً ، فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يديه » ، وأضاف : « إن نبي الله داود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يديه » ، وحتى رعى الغنم مقابل أجر يعتبر عملا شريفاً ، زاوله النبي « على قراريط » وهى جمع قيراط ، والقيراط نصف عشر الدينار ، فى أيام حداثته الأولى . وكان صحابة النبي لا يأنفون من أن يعملوا كحمالين ، وكانت تزجى إليهم النصيحة أن يكسبوا قوتهم إذا ألحت بهم الحاجة ، بجلب الحطب على ظهورهم وبيعه فى الأسواق ؛ « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره ، خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه » (ب ٢٤ : ٥٠) وتحمل الأعمال الصغيرة الحقيرة فى ثناياها معانى الرفعة والشرف ، فمن يمتهنون الجزارة وبيع اللحوم والصياغة والحدادة والحياكة والنسيج والنجارة يعتبرون أعضاء شرفاء فى المجتمع ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويحلب شاته ، ويغسل آنيته بنفسه ، وعلى الرغم من أنه كان المعلم الروحى والإمام فى نفس الوقت ، فقد كان يعاون زوجه فى

الخاص بالوصية ، فإن على كل مسلم نزولا على ما جاء فى القرآن الكريم أن يوصى بنصيب من ماله لا يزيد على الثلث ـ كما ورد فى حديث نبوى شريف ـ لأعمال البر كما ينفق فى معاونة الفقراء والأرامل واليتامى وهى حق على المتقين ، كما جاء فى القرآن الكريم :

« كتب عليكم إذا جاء أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » . والوصية على ماورد فى حديث شريف قصد بها خدمة أعمال البر ، ويجب ألا تزيد عن ثلث الثروة حتى لا يترك الورثة معسرين ، والوصية كالزكاة مورد خير لإصلاح حال المساكين . فإذا ماجعلتها الحكومة إجبارية ، كانت مطبقة لنص القرآن الكريم وروحه .

واجبات الله ، لا يلهيهم البيع أو الشراء عن ذكره تعالى ، وقد تحدث القرآن فى هذا الصدد حديثاً كهذا : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » (٢٤ : ٣٧) .

ويضع الإسلام الثروة فى مكانها الصحيح ، فهى وسيلة لغاية : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها » (٤ : ٥) . « ولا تبذر تبذيراً » (١٧ : ٢٦) . « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً » ، وليس حتما أن يكون جمع المال تشريفاً ولا يكون عـــدم جمعه امتهاناً : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن » ، وجمع المال ينفى عن الإنسان راحة البال : « الذى جمع مالا وعدّده ، يحسب أن ماله أخلده » .

ويعتبر المال ثمرة العمل ، فكل ذكر أو أنثى له أن يجمع المال بمجهوده : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » (٤ : ٣٢) . والواقع أن حرمان الإنسان من امتلاك الثروة التى يكتسبها ، حرمان للعمل من ثمرته ، وقد يرث الرجل والمرأة الثروة كذلك (٤ : ٧) ، وقد توهب وتمنح ، ولا يوجد ما يحدد امتلاك الثروة ، ولكن كل من يملك عشرين مثقالا أو أكثر عليه أن يخرج زكاة توازى ٢,٥ ٪ مما يدخره سنوياً

أعمالها المنزلية ، والنساء كذلك يستطعن أن يزاولن أعمال الرجال .

وقد تحدث النبي عن أجر العامل بألفاظ قوية شديدة ؛ قال : قال الله تعالى « ثلاثه أنا خصمهم يوم القيامه : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوى منه ولم يعطه أجره » . وإنه لخير عظيم أن تستثمر أجور العمال التى لم تُدفع فى أعمال طيبة حتى تكثر ، وقد وُضعت القاعدة الأساسية فى القرآن الكريم ، فالخادم عليه أن يعمل بأمانة وعلى جهد استطاعته ، والسيد عليه أن يوفيه أجره : « قالت إحداهما يأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين ، قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىَّ هاتين ، على أن تأجرنى ثمانىَ حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » (٢٨ : ٢٥ - ٢٦) .

ويجب أن يعامل الخادم فى كل مناسبة بروح العدل والمساواة ، تبلغ درجة أنه قد يأكل مع سيده على مائدة واحدة ؛ فإن الخادم والسيد طرفا تعاقد ، ولا يعلو طرف منهما على الآخر .

إن نظرة الإسلام إلى الثروة تختلف كل الاختلاف عن نظرة المدنية الحديثة إليها ، فالمدنية الحديثة تعتبرها أس الحياة وأسمى غايتها ، ولكن الإسلام لا ينظر إلى المغانم المادية إلا نظرة ثانوية ، فإن الواجب نحو الله يحتل عنده مكان الصدارة ، وقد أخبرنا فى الحديث أن الناس يبيعون ويشترون ، فإذا مادعاهم واجب من

اقتضى » ، وقال : « إن رجلا كان فيمن قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه فقيل له هل عملت من خير قال ما أعلم ، قيل له انظر قال ما أعلم شيئاً ، غير أنى كنت أبايع الناس فى الدنيا وأجازيهم ، فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر ، فأدخله الله الجنة » (ب ٣٤ : ١٩) وإن كان فيما يباع عيب ، فالواجب أن يخبر به المشترى : « ولا يحل لامرىء يبيع سلعة يعلم أن بها داء إلا أخبره » (ب ٣٤ : ١٩) ، ويجب أن تعطى المشترى فرصة معاينة ما يشتريه (ب ٣٤ : ٦٢) ، وجاء فى بيع الحنطة بعض إرشادات خاصة ، إذ هى أول مايحتاجه الإنسان ، فيجب أن تعرض فى السوق ، حتى تباع بتكاليف زرعها ، فالمضاربة فى بيعها حرام (ب ٣٤ : ٥٤) ، وخزنهـا حتى ترتفع أسعارها تبعاً لذلك حرام (م ش ١٢ : ٨) ، وقد أوصى ألا يباع العقار الثابت إلا إذا كان فى نية المشترى استثمار الثمن فى عقار ثابت آخر ، (اح : ٤ - ٣٠٧) .

وتعتبر زراعة الأرض صدقة : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان به صدقة » (ب ٤١ : ١) ، غير أن هناك تحذيراً من الانهماك فى الزراعة ونسيان وسائل الرقى الأخرى ، فقد ورد عن أبى أمامة الباهلى وقد رأى سكة وشيئاً من آلة الحرث أنه قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الذل » ،

يدفعها لهيئة تنفقها فى معاونة الفقراء : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم » (٩ : ٦٠) وهذه الهيئة تديرها الحكومة أو المجموعة الإسلامية ، وليست الزكاة إحساناً بالمعنى اللفظى للكلمة ، ولكنها ضريبة تدفع للحكومة أو لهيئة منظمة فى سبيل الخير ، ولا يزيد ما يوصى به الفرد باختيارة عن الثلث .

إن فكرة الإحسان فى الإسلام واسعة الأفق ، فهى تشمل كل خير يقدم للناس . كإعانتهم فى أمورهم ، أو نهيهم عن ارتكاب المعاصى ، أو هديهم إلى الطريق الصحيح ، أو مقابلتهم بوجه متهلل وهكذا ، ومعاملة الحيوان الأعجم بالرفق صدقة ، ويجب أن تُعطى الصدقة دون أن تسأل ، فإن مزاولة المهن الحقيرة خير من السؤال ، ويجوز أن تقدم الصدقه علانية ، كالتصدق على الجمعيات الخيرية العامة ، أو أن تكون فى السر ، دون أن تعلم الشمال ما أعطت اليمين ، وتحتل التجارة بين وسائل الرزق المكان البارز الأول : « فالتاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (ت ١٢ : ٣) . ويطلب من البائع أن يكون أميناً فى الكيل والميزان : « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا » (١٧ : ٣٥) . وحسن المعاملة واجب : « رحم الله رجلا سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا

فغفر له » ، وليست مماطلة الغنى فى دفع الدين ظلما فقط ، ولكنها ذنب قد يعاقب عليه كذلك . قال النبى : « مطل الغنى ظلم » (ب ٤٣ : ١٣) ، وقال : « لىّ الواجد يُحل عقوبته » ، ورهن المتاع كضمان لسداد الدين جائز بشروط خاصة . عن عائشة رضى الله عنها : أن النبى صلى الله عليه وسلم اشترى طعاماً من يهودى إلى أجل ورهنه درعاً من حديد ، وجاء فى القرآن الكريم : « إن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » (٢ - ٢٨٣) ، وقد حرم الربا تحريماً : « أحل الله البيع وحرم الربا » (٢ - ٢٧٥) . وعلى كل صاحب ثروة أن يوصى للأعمال الخيرية بما لا يزيد عن ثلث مايملك : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » (٢ : ١٨٠) ، والثروة التى يتركها الإنسان يجب أن تقسم على ورثته من نساء ورجال : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين ، آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما » (٤ : ١١) ، ومن يترك متاعاً وليس له من يرثه ، فإن ثروته يجب أن تؤول للحكومة الإسلامية ، فإن لم توجد فللهيئة الإسلامية .

وتكون الأرض الموات من نصيب من يحييها ، قال عمر : « من أحيا أرضاً ميتة فهى له » (ب ٤١ : ١٥) ، وقد عرفت الملكية الخاصة للأرض ، فإن لصاحبها أن يكريها لغيره (ب ٤١ : ١٩) ، وقد أوصى من يملكون أرضاً هم فى غنى عنها أن يتركوها لإخوانهم الفقراء يزرعونها دون أن يأخذوا شيئاً معلوماً ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسك أرضـــه » (م ش ١٢ : ١٣) ، وتحصل الدولة من خراج الأرض التى يسقيها المطر والعيون العشر ، ونصف العشر من خراج الأرض التى تسقيها الآبار . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فيما سقت السماء والعيون أو كان عثرياً العشر وما سقى بالنضح نصف العشر » (ب ٢٤ : ٥٥) ، وقد أنذر من يعتدى على أرض جاره أو يسيطر عليها بعذاب أليم .

ويجب أن تكتب كل معاملات الديون والاستقراض ، كما يجب أن تراعى مصلحة المدين ، وعلى الإنسان أن يتجنب الدين على قدر المستطاع ، والاقتراض وليس فى النية الأداء محظور ، « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله » (ب : ٢٤ : ٣) ، وإمهال المدين فى أداء دينه ، والتنازل عن الدين فى حالة إعسار المدين من الخصال المستحسنة الجيدة ، قال حذيفة : سمعت النبي يقول : « مات رجل فقيل له ، قال كنت أبايع الناس فأتجوّز عن الموسر ، وأخفف عن المعسر

عن إعداد الجنس البشرى جميعاً ـ ملق به زوايا العبودية والرق ، فإذا ما كان هذا نصيب المرأة من الماديات فكيف كانت تستطيع أن تتهيأ لتلقى الروحانيات ؟ وكان ينظر للزواج على أنه حجر عثرة فى سبيل التقدم الروحى للإنسان حتى فى المسيحية .

فلما ضعف سلطان المسيحية وقوى عود المدنية المادية استطاعت المرأة أن تناضل من أجل حقوقها فظفرت ببعض منها ، ولكنها بعد هذا الفوز منيت بالفشل إذ فقدت الاستقرار والهناءة المنزلية ، فقد أضعفت المادية من قوة الدين الوازعة وأدت إلى حالة منحلة فى العلاقات بين الزوجين ، فكان من نتيجة ذلك أن خضعت أوربا خضوعاً مطرداً للإباحية . وطرح الزواج جانبا لا لعيب طبيعى فيه ولكن لأنه يلقى ببعض المسئوليات على كاهل الإلفين اللذين يفكران فى إنشاء بيت . فالنظرة المادية جعلت من الإنسان أنانياً كبيراً ، فبينما يجرى وراء كل متعة فإنه يتملص من مسئوليات الحياة الجدية ، حتى يحيا حياة خالية من المتاعب ، ولكن الحياة لها نصيبها من المتاعب والأتراح كما أن لها نصيبها من الأفراح ، والزواج إذ يقوى من روابط الحب المتبادل بين الرجل والمرأة ويزيد من سعادتهما يتطلب منهما أن يتقاسما المتاعب والأحزان معاً ، فالإباحية تجعل كلا الجنسين أنانياً إلى أقصى حد ، لأن الرجل والمرأة إذا ما أصبحا إلفين للمتعة فقط ترك كل منها الآخر وحيداً لأحزانه .

الفصل الثالث

البيت

إن إيجاد الحل الصحيح لمشكلة الجنس أمر ضروري لبناء نظام اجتماعي كما هو الحال في إيجاد حل للمشكلة الاقتصادية. فالبيت نواة المجتمع البشري وتقدر سعادة البشر في الأحوال العادية بالسعادة التي ترفرف على البيت، وفي الاستقرار المنزلي دليل على استقرار المجتمع ومدنيته. ولما كان البيت يتألف من الرجل والمرأة فإنه يتوقف على مقدار فهمهما الصحيح لمركزهما ولعلاقة كل منهما بالآخر، الاستقرار والهناءة.

وقد انقضى وقت طويل قبل أن تعرف الإنسانية مركز المرأة الصحيح. إذ كان ينظر إليها في الأزمان الغابرة كما ينظر إلى الرقيق. فهي متاع للزوج وليست نداً له، وكان من حق الرجل وحده أن يملك متاعا، في حين كان محظوراً على المرأة أن تملك أي متاع، أو أن تقوم باسمها بمباشرة أية عملية تجارية، وعلى ذلك لم تكن شخصاً بمعنى الكلمة، وكان لها أحقر نصيب من الحقوق كابنة أو كزوجة أو كأم أيضاً فكانت وهي ابنة ملكا للأب، وهي زوجة ملكا للزوج، فكان نصف الجنس البشري - النصف الهام المسئول

يستطيع أن يحمى ذمار قبيلته ويدفع عنها عدوان العدو ، وهو مالم تعد الطبيعة المرأة له .

وزيادة على ذلك فإن مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة سرى فى جميع شئون الحياة ، وجاء هذا القانون العام فى الآية الكريمة « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون » .

وهذا هو الانقلاب الذى أحدثه النظام الإجتماعى الإسلامى فى مركز المرأة الدنيوى ، وقد تقرر مثل هذا المبدأ فى الناحية الدينية ، فالمرأة تتساوى والرجل روحياً أيضاً .

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » (٣ : ١٩٤) .

« ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » (٤٠ : ٤٠) .

« ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٩٧:١٦)

ويتحدث القرآن الكريم عن النساء حتى من أوحى إليهن من السماء على أنهن هبة الله العظمى للرجل « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . . . الآتية »

وليس الزواج فى النظام الإسلامى حجر عثرة فى سبيل السمو

وقد لعب النظام الإسلامى الاجتماعى دوراً هاماً فى تنظيم العلاقات ، فبدأ بتدعيم الأسس باعتبار المرأة مخلوقاً حراً له حق الاحتفاظ بما يملك أو بيعه إذا شاء ، وبهذا الحق أصبحت المرأة مساوية للرجل فى كافة الحقوق ، ولم تعد بعد ملكا له بل أليفته ونده لها ما له من كافة حقوق الملكية . وهكذا وضع الأساس برفع القيود عن نصف الجنس البشرى ، فبعد أن كانت المرأة كما مهملا يملكه الرجل أصبحت شخصاً له فى الهيئة الاجتماعية مكانة لا تقل بحال عن مكانة الرجل ، ففى إمكانها أن تكسب مالاً وأن تباشر العمل الذى تود ، وأن تجنى ثمار عملها كالرجل تماماً ، وتقرر مركز المرأة من ثلاثة عشر قرناً بهذه الآية الكريمة « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » (٤ : ٣٢) .

وهكذا أصبح فى استطاعة المرأة أن تكتسب المال وأن تحوزه كالرجل ، ولم يميز النظام الإسلامى بين الجنسين فى هذا الحق ، ففى وسعها أن تبيع وتشترى وأن تهب مالها لمن تشاء « فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » (٤ : ٤) .

ولم يقف الإسلام عند هذا الإصلاح - ولو أنه فى ذاته إحدى الأعاجيب - إلا أنه جعل الأنثى ترث كالذكر ، بعد أن كان العرب يخضعون لتقاليد يقدسونه وهو ألا يرث إلا كل من

وقال في مناسبة أخرى « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج » كما قال في حديث آخر « الزواج نصف الدين » .

ويعتبر الزواج في النظام الاجتماعي الاسلامي ميثاقاً يعقد على أساس الحب المتبادل بين الطرفين : الرجل والمرأة ، في حضور الشهود . فمن هذا يتضح أن الرجل والمرأة في البيت الإسلامي إلفان متكافئان لهما حقوقهما وواجباتهما ، ولما كان الزواج القاعدة التي تقوم عليها الهيئة البشرية فإن ميثاق الزواج ليس كأي ميثاق عادي آخر ، ومن المحتم إشهاره ، فالإشهار هو الفارق الوحيد بين الزواج والسفاح ، ويجب أن يعلن كل عقد زواج ولو بدق الدفوف ، كما يجب أن يكون في حفل عام « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف » (المشكاة) .

وفضلا عن إشهاره فالزواج يأخذ صبغة دينية إذ تلقى خطبة دينية عند بدء مراسيم الزواج وقد وردت هذه الخطبة في آيات خاصة من القرآن الكريم (٣ : ١١ ، ٤ : ١ ، ٣٣ : ٧٠ ، ٧١) وهذه الآيات تنبه إلى غرض الحياة الأوحد ، إلى الحقيقة المثلى . وهي أن هنالك إلها أعلى يدين له الرجل والمرأة بالطاعة على السواء ، ولذا يجب أن ينظر إلى هذا الميثاق نظرة صريحة ، فالحقوق والواجبات التي لكل طرف من الطرفين نحو الآخر فروض

الروحى فى الرجل ولكنه وسيلة تؤدى إلى زيادة هذا السمو . فقد خلق الله الزوجين ليسكنا إلى بعض « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » (٢ : ١٨٧) .

والحب المتبادل بين الزوجين ـ الحب الذى يقوم على أساس ثابت من طول المعاشرة لاحب العاطفة الوقتى ـ يؤدى إلى ازدياد عاطفة المودة بين الرجل والرجل أيضاً ويؤدى هـــذا بدوره للإنسانية أجل فائدة ، إن المحبة الطبيعية بين الذكر والأنثى وبين الأنثى والذكر لا تجد لها مظهراً إلا فى الزواج ، وهى تزدهر فى البداية فى حب الأولاد والأقارب والأصهار ثم تنتهى إلى حب شامل للناس جميعاً ، والمنزل فى الواقع حقل التجارب للحب والخير ففيه يحس الإنسان بالسعادة الحقيقية إذ يشقى من أجل الآخرين فتنمو تبعا لذلك روح الخير وتزدهر .

وينظر الإسلام إلى الزواج على أنه الوسيلة المثلى لرقى الإنسان ، الوسيلة الوحيدة لتنمية عواطف والحب والخير التى تخر الإنسانية اليوم. فالزواج حسب النظام الإسلامى الاجتماعى هو الحالة الطبيعية التى ينبغى على كل رجل وامرأة أن يندمج فيها ، ويحض القرآن الكريم أتباعه على الزواج « وانكحوا الأيامى منكم » وقد ورد أن النبى الكريم قال لفئة من الشباب تفشى الفسق بينهم « إنى أتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » (ب ٦٧ : ١) .

والمرأة معاً ، ولكن ما لم يكن هناك تفاوت فى القوة بينهما فسيضطرب نظام هذه المملكة ، وسبب إعطاء السلطة للرجل واضح فى الآية الكريمة :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » فالزوج قوام على الزوجة وله مطلق التصرف فى شئون البيت ، كما له حق استعمال القوة معها إذا دعا الأمر إلى ذلك ، فهو من يؤتمن على قيادة البيت ولذا يجب أن يكون صاحب السلطة والقوة ، إن وظائف الرجل والمرأة لتتميز كل التميز فكل واحد منهما حريص على الوظائف التى تلائم طبيعته ، فالرجل يفوق المرأة فى البنية والقوة ، وهو أقدر منها على احتمال المشاق ومجابهة المخاطر ، بينما تفوق المرأة الرجل فى صفات الحب والحنان ، فالطبيعة رغبة منها فى معاونة ازدياد النماء فى الخلق أمدت النساء دون الرجال كما أمدت الحيوانات بمقدار من الحب أكثر بدرجة عظيمة مما أمدت به الذكر ، وهناك فارق طبيعى بين الرجل والمرأة فى الأعمال الرئيسية التى ينبغى أن تسير سيرها من أجل صالح البشرية ونجاحها . فالرجل أعد لمواجهة شدائد الحياة نظراً لبنيته القوية وأعدت المرأة لإنجاب الأولاد بسبب رجحان عاطفة الحب فيها ، ولذلك فإن مهمة الإشراف على الأسرة قد ألقيت على كاهل الرجل ومهمة إنجاب الأولاد كانت من نصيب المرأة ، وقد زود

فرضها الله ، وقانون السماء أعظم القوانين كافة . ويُدفع كذلك عند الزواج مهر ، وهذا المهر الذى يدفع لتصبح المرأة مالكة لبعض المتاع يدل على أن المرأة علاوة على حصولها على مركز الزوجة لا تفقد أى حق من حقوقها الشخصية بل تحصل على مكانة اجتماعية مستقلة تامة .

إن شخصية المرأة فى النظام الاجتماعى الإسلامى لاتفنى فى شخصية الرجل . فبينا لا تفقد شيئاً من حقوقها المكتسبة كفرد فى الهيئة الاجتماعية البشرية فإن حياتها الجديدة تلقى عليها مسئوليات جديدة كما تجلب لها حقوقاً جديدة « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » (٢ : ٢٢٨) .

وقد وضحت هذه النظرية جيداً فى الحديث الشريف « كلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع والرجل راع ومسئول عن أهله ، والمرأة راعية ومسئولة عن بيت زوجها . (ب ٦٧ : ٩١)

والمنزل وحدة يتألف منها نظام الدولة ، وكما أنه يجب فى نظام الدولة العام أن يكون هناك شخص يقبض بيده على زمام السلطان والقوة فكذلك يحتاج النظام المنزلى إلى مثل هذا الشخص ، ولذلك ورد فى الحديث أولا أن الرجل هو الراعى على أهل بيته ثم جاء بعدئذ أن المرأة راعية على بيت زوجها وأولادها .

والبيت هو الدولة فى صورة مصغرة ويسيطر عليه الرجل

فقد ورد فى حديث شريف له « خياركم خياركم لنسائهم » (المشكاة ١٣ : ١١) وقال صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع « أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، فاستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم رعوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً » المشكاة (١٥ : ١٩) .

ومع أن الزواج طبقاً للإسلام ليس إلا ميثاقا اجتماعيا ، إلا أن الحقوق والواجبات التى يفرضها من أجل رفاهية الإنسان من الأهمية بمكان وذلك لما تحوى من الطهارة والتقوى . ولكن على الرغم من خاصيته المقدسة فالإسلام يعرف ضرورة ترك الباب مفتوحا لفصم عرى الزواج فى ظروف استثنائية ، فقد كان الناس قبل الإسلام على طرفى نقيض فيما يختص بالطلاق ، ففى الشريعة الهندوسية لا يفصم الزواج الذى يعقد بتاتاً ، والطلاق فى الشريعة الموسوية فى يد الرجل فقط يستعمله وقتما يريد ، أما فى المسيحية فإن الطلاق لا يكون إلا إذا حدثت خيانة من الطرفين ولا يسمح مطلقاً للمطلقين أن يتزوجا ثانية ، أما الإسلام فقد اتخذ موقفاً وسطاً بين هذه الآراء المتغالية . فهو يسمح بالطلاق ولكن يعتبره أمراً مكروهاً ، ويتلمس السبل الممكنة لإصلاح ذات البين ، فإذ يقر حق الزوجة فى الطلاق لسبب وجيه يحد من حق الزوج .

والطلاق الصحيح وفقاً لما جاء فى القرآن الكريم هو تقرير

كل منهما بوسائل القوة التى تتناسب والمهمة التى أعد لها . وهذا التقسيم هو القاعدة العامة ليس إلا، ولا يعنى أن المرأة قد أبعدت عن كافة أنواع النشاط الأخرى ، وفضلا عن وظيفتها المكتسبة فى البيت كمديرة له ومنجبة للأولاد كان لها نصيب كبير فى نشاط الهيئة الإسلامية ، ولم تعقها رعاية الأطفال عن الذهاب إلى المساجد لتأدية صلاة الجماعة (ب ١٠ : ١٩٢) كما لم تعقها عن مشاركة الرجال فى ميادين القتال لتقوم بواجبات عدة، كحمل الميرة مثلا (ب ٥٦ : ٦٧) ونقل الجرحى والمرضى (ب ٥٦ : ٦٨) وغير ذلك ، وكانت تمارس ما تهوى من الأعمال ، فكان النساء يعاون أزواجهن فى الزراعة (ب ٦٧ : ١٠٨) كما كن يباشرن الأعمال التجارية (ب ١١ : ٤٠) ويبتعن من الرجال ويبعنهم ، كما كان الرجال يبيعونهن ويبتاعون منهن (ب ٣٤ : ٦٧) وبالمثل كان الرجال يعاونون أزواجهن فى شئون البيت .

ويحض النظام الإسلامى بشدة على معاملة الزوجة معاملة طيبة حسنة « فإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف »« وعاشروهن بالمعروف » (٢ : ٢٢٩ ، ٢٣١ — ٤ : ١٩) والرحمة بالمرأة واجبة حتى فى حالة الكراهة ، قال الله تعالى « عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » (٤ : ١٩) .

وكذلك كان الرسول يحض على معاملة الزوجة معاملة حسنة

فى المكان الأسمى من اهتمامه . فإن نظرة عابرة فى مجتمعات العالم لتثبت أن المجتمع الإسلامى يتسنم الذروة بين المجتمعات المحافظة على قدسية العلاقات الجنسية ، فالدعارة المنتشرة فى الدول الغربية والتى تقترف كذلك فى الطقوس الدينية بالهند تكاد الدول الإسلامية لا تعرفها ، وقد كانت تسيطر على بلاد العرب قبل ظهور الإسلام الذى حاربها بقوة فما استطاعت أن تمد جذورها فى المجتمع الإسلامى ، وساد هذا البلاء بسبب زيادة النساء على الرجال فى معظم الأمصار ، وبأسباب أخرى بينها الشهوة الجنسية الجامحة والانحطاط الخلقى فى الشئون الجنسية ، وقد أوضحت الأرقام الإحصائية هذه الحقيقة وضوحا تاما ، فعدد النساء فى معظم دول أوروبا يفوق عدد الرجال ، وتعمل الحروب المروعة التى يظهر أنها أصبحت جزءاً من الحياة العادية فى أوروبا على اضطراد زيادة هذا العدد ، وكيفية معاملة هذا الحشد المتزايد أصبحت السؤال الذى يشغل بال الأخلاقيين فى أوروبا ، فالطبيعة تصرخ فى طلب حاجاتها وتود لو تنطلق فى طريقها ، فإذا لم توضع الحلول فى الوقت المناسب فستنتشرى شرور الدعارة التى أصبحت الآن لطخة سوداء فى جبين المرأة الأوروبية ، وستدك أسس المجتمع الأوروبى دكا .

وقد واجه الإسلام حالة كهذه فى فجر تاريخه إذ قللت الحروب ، التى شنها العرب على المسلمين لاستئصال شأفة الإسلام ،

الطرفين ألا يعيشا معاً كزوجين . والزواج فى الواقع اتفاق بين الرجل والمرأة على أن يعيشا زوجين فإذا وجد أحد الطرفين أنه لا يستطيع أن يحيا مثل هذه الحياة وجب الطلاق ، والعقلية الإسلامية فى هذه المسألة زيادة على ذلك تبغض فى الطلاق . « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » (اد ١٣ : ٣) فإذا ما شعر أحد الزوجين أنه لا يستطيع الاستمرار فى معاشرة الآخر وجب عليه أن يتذكر قوله تعالى « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » (٤ : ١٩) .

وقد وصف العلاج لتجنب الطلاق على قد الإمكان « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » (٤ : ٣٥) .

وعقلية المسلم فى مواجهة صعوبات الحياة الزوجية ونعيمها وتجنب تمزيق العلاقات الزوجية لأطول أجل ، وعدم التجائه إلى الطلاق إلا إذا تعذر الحل ، تعود إلى مثل هذه التعاليم السمحة . وعلى ذلك فإنه على الرغم من السهولة التى قد يتم بها الطلاق ليس هناك حاجة تدعو للذهاب إلى الحاكم فى معظم الحالات . ووقوع الطلاق بين المسلمين أقل بكثير منه فى البلاد المسيحية حيث لا تسيطر قوانين الإسلام الاجتماعية وحيث ترتفع نسبة الطلاق ارتفاعا فاحشاً .

وتميز النظام الإسلامى ميزة أخرى هى أنه يضع مسألة العفة

قيمة عظمى لينفر من مثل هذا الحل ، ويمدها بالوسائل التي تحصنها ، ولذلك سمح النبي الكريم حسب ما أوحى إليه بتعدد الزواج المحدود ، كما سمح بذلك من سبقه من الأنبياء ، إنه لمن المستطاع وضع نظم أخرى لصيانة الأرامل ولكن ليس من المستطاع إمدادهم بحياة البيت في أية صورة أخرى ، لحياة البيت المنهل الحق الذي تتفجر منه كل صفات الحب والرحمة ، وهي أعظم ذخر للمدنية والحياة الاجتماعية .

شاد الإسلام حضارته على حياة البيت ، وفي الظروف الاستثنائية التي أخفق فيها نظام الزوجة الواحدة في تهيئة بيت للمرأة سمح لنظام تعدد الزوجات المحدود أن يحقق لهن تلك الميزة ، فلو قيل إن المرأة لا تجد في حالة تعدد الزوجات إلا نصف بيت ، فإن ذلك أفضل من ألا تجد بيتاً على الإطلاق . وما معنى عدم وجود بيت ؟ ليس معناه أن المرأة لا تجد مأوى فقط ، ولا أنها حرمت من فرصة إبداء عواطف الحب والرحمة التي وهبها الله إياها فقط ، ولكن معناه في أغلب الحالات هو الحرمان الخلقي وهو أعظم الأخطار على الحضارة ، إن نظام الزوجة الواحدة ولا شك هو الدعامة الثابتة للحياة في الأوقات العادية ، إلا أنه يفشل في الظروف الشاذة التي تزيد فيها نسبة النساء على الرجال . وعندئذ لا يمكن إيجاد حل لهذه المعضلة إلا بإباحة تعدد الزواج المحدود .

من عدد الرجال فزاد عدد الأرامل والأيامى فى بيوت المسلمين ، وقد تنبه الإسلام إلى نتيجة هذا الشر وتبينها فى جلاء تام . فرأى أنه من الميسور وضع ترتيبات للبر بالمعوزين ، إلا أن الطبيعة التى أودعها الله فى الناس لا يمكن أن تتبدل ، إذ أن الشهوة الجنسية حقيقة ثابتة كشهوة الجسد . وتحت ضغط هذه الظروف سمح بتعدد الزواج المحدود . وإن الآيات الخاصة بتعدد الزواج لتشير بوضوح إلى هذه الظروف « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » ولم يصرح بتعدد الزواج لحاجة الرجل إلى أكثر من زوجة بل لأن اليتامى والأرامل كانوا من غير عائل ولابد من تهيئة بيت لهم ، فهدف الإسلام الأول تشييد الأخلاق وإقامة صروحها ، ولا يقنع بالحلول العاطفية المادية التى تقضى بتقديم الطعام للمرأة دون أن يلقى بالا إلى روحها ، أو يهتم بإعداد دار لها أو يعمل على أن يحفظ لها عفتها ، ولا يهىء لها مايرضيها كأنثى ، إن الحل المادى ليسير ولكنه لا يطعم إلا جوعها فلا يهتم بصيانة عرضها ؛ ولا يرضى روحها ، ولا يعنيه إذا كانت تبيع عرضها لقاء دراهم معدودة أو لتقيم أودها فى بعض الأحايين . وما فى ذلك تجن أو مبالغة فإن هذا مايحدث فعلا فى جميع مراكز الحضارة المادية حيث تضطر المرأة عادة إلى بيع شرفها مقابل طعامها أو لقاء مأوى لها .

فالإسلام إذ يهتم بالروح أول ما يهتم وإذ يجعل لشرف المرأة

الناحية الأخلاقية فى المجتمع ، وإن فى حرمة الحياة المنزلية ما يؤدى إلى هذا ، فمن المحظور دخول بيت دون إذن « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » ولا يسمح بالدخول طالما كان من الممكن إجراء العمل اللازم دون اقتحام حرمة النساء « وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن » .

والخاصة الثالثة التى تؤدى إلى تهذيب الناحية الأخلاقية هى أن تلبس النساء اللباس اللائق عند ما يظهرن فى المناسبات العامة ، أو بمعنى آخر عند ما تدعو الضرورة إلى اختلاط الجنسين ، والزى اللائق هو أن تغطى المرأة كل جسمها ما عدا الوجه واليدين ، وليس من المسموح لهن عند خروجهن من بيوتهن أن يبدين زينتهن أو أن يكشفن عوراتهن منعاً لتحرك غرائز الجنس الآخر « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن او أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات

إن أوروبا تواجه هذه المسألة بغض النظر عن الحرب ، فما بالك بالحرب التى تعمل على نقص الرجال وزيادة النساء ، لقد زادت الأمر سوءاً . وقد يمكن إيجاد عمل للنساء يعينهن على كسب قوتهن ، ولم يغلق الإسلام باب العمل إطلاقا فى وجه المرأة ، إلا أن المعضلة ليست تيسير الحصول على الطعام ولكن تيسير الحصول على بيت . ويجب أن يفهم فى وضوح أن تعدد الزوجات فى الإسلام — سواء أكان نظرياً أو عملياً — ما هو إلا نظام استثنائى . وهو علاج لكثير من مساوىء المدنية الحديثة . وعلى فرض أن أوروبا تعتبره شراً ، فلتقل لنا : أيها أعظم شراً أتعدد الزوجات المحدود أم الدعارة والانحطاط الخلقى المطلق .

يهدف الإسلام إلى رفع مكانة الأخلاق فى المجتمع وتضييق الفرص على العلاقات الجنسية الآثمة الآخذة فى الانتشار بين الجنسين ، حتى يصبح البيت جنة السلام للزوج والزوجة والأبناء . ومن الممكن أن يحدث هذا بتقسيم العمل ، فتختص الزوجة بالهيمنة على البيت والأولاد ويختص الرجل بالجرى عليهم . وهذا التقسيم يقلل إلى أدنى حد فرص اختلاط الجنسين . وليس معنى هذا ألا تغادر المرأة بيتها ، فإن لها مطلق الحرية فى الخروج لقضاء حاجاتها (ب ٦٥ — ٣٣ : ٨) .

وتقسيم العمل لا يؤدى إلى إتقانه فحسب ، ولكنه يهذب

ملحق الفصل الثالث

إن المرأة مخلوق حر بكل مافى الكلمة من معان ، فهى تتساوى والرجل فى الحرية المطلقة ، فلها حق الكسب « وللنساء نصيب مما اكتسبن » (٤ : ٣٢) ولها حق حيازة المال أو إهدائه لمن تشاء « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً »(٤ : ٤) كما لها الحق فى أن ترث كالرجل (٤ : ٧) . وهى تتساوى والرجل كذلك فى الحقوق الدينية « فاستجاب لهم ربهم إنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض »(٣ : ١٩٤) « ومن عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » (٤٠ : ٤٠) وقد شرفت كذلك بالإيحاء الإلهى « وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين (٣ : ٤١) « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ... الآية » (٢٨ : ٧)

وجعل الإسلام المصاهرة فى نفس أهمية القرابة « وهو الذى خلق من الماء بشرا وجعله نسباً وصهرا وكان ربك قديرا » (٢٥ : ٤) ويقدم الزواج للهيئة الإنسانية خدمه مزدوجة ، فهو

النساء ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن »

وعلى كلا الجنسين أن يتعود الغض من البصر فى حضور كل من الجنس الآخر « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون »

وبهذه الضمانات كان للمرأة أن تذهب حيثما شاءت وأن تباشر العمل الذى تود ، ويجب أن يكون مفهوماً تماماً أن النقاب لم يكن إلا رمزاً يشير إلى طبقة المرأة ، فليس هناك فى القرآن الكريم أو الحديث الشريف أى إشارة إلى وجوب النقاب بل على العكس كانت المرأة تتوجه للصلاة يومياً فى المساجد دون أن تضع النقاب ، وكان النقاب ولا زال محرماً عليها فى حجها .

(٤ : ٢٣) والأساس أن يتزوج الرجل من امرأة واحدة ولكن في بعض الحالات الاستثنائية يسمح للرجل أن يتخذ زوجة أخرى « وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة . . . الآية » (٤ : ٣) ، ويجب أن تسبق الزواج خطوبة (ب ٦٧ : ٣٧) وقد ورد أن الإنسان يجب أن يكون مقتنعاً وراضياً كل الرضا عمن يختارها قبل البدء في الزواج «عن المغيرة بن شعبة أنه قال خطبت امرأة . فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم هل نظرت إليها فقلت لا قال فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » كما يجب أن يحصل الولي على موافقة الزوجة « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن » والمرأة التي يزوجها أبوها عن غير رغبتها زواجها مردود « عن خنساء بنت خذام أن أباها زوجها وهي ثيب فكرهت فأتت رسول الله فرد نكاحه » (ب٦٧ : ٤٣) وحسن دين المرأة الاعتبار الأول الذي يجب أن يلتفت إليه من يبتغي الزواج بالا « تنكح المرأة لأربع: لمالها وحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » ويجب أن يدفع الرجل مهراً للزوجة عند الزواج ، ولم تحدد قيمته، قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل « تزوج ولو بخاتم من حديد » وقال تعالى « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة . . الآية (٤ : ٤) وقد يزيد المهر أو يقل تبعاً لموافقة الزوجين وتراضيهما بعد الزواج « والمحصنات من النساء

الوسيلة لسمو الإنسان روحياً ، ولرفاهية الجنس البشرى كذلك « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » (٧ : ١٨٩) ؛ « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٣٠ : ٢١) والقرآن الكريم يحض على الزواج ذم اما ولا يقر حياة العزوبة « وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم . . . الآية » (٢٤ : ٣٢) ومن لا يستطيع الزواج فعليه أن يحاول أن يكون عفيفاً بوسائل أخرى كالصيام وغيره « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصيام » (ب ٣٠ : ١٠) والزواج عقد مقدس بين الرجل والمرأة ينفذانه بالرضا والقبول « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » (٤ : ٢١) والزواج الإجبارى محظور (ب ١٤ : ٤) ويجوز للمسلم أن يتزوج غير المسلمة « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ... الآية » (٥ : ٥) والزواج ببعض طبقات الأقارب حرام « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة . . . الآية »

لأسباب قوية حتى ولو لم يكنْ هناك سوء معاملة من جانب الزوج: « جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت يارسـول الله : إنى لا أعتب على ثابت فى دين ولا خلق ، ولكنى لا أطيقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فتردين عليه حديقته قالت : نعم » ولا يكون الطلاق والمرأة حائض ؛ طلق ابن عمر امرأته وهى حائض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله عن ذلك ، فقال رسول الله : « مره فليراجعها ثم ليمسك حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء » . ويتعقب الطلاق العدة وهى فترة انتظار تقرب من ثلاثة شهور ، تقضيها الزوجة فى بيت زوجها ، ثم يكون للزوج بعد ذلك أن يردها إن أراد : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عـزيز حكيم » (٢ : ٢٢٨) ؛ والمهر الذى يدفع عند الزواج لا يجوز استرداده عند الطلاق ، إلا إذا كان الطلاق لارتكاب الزوجة جريمة الزنا : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً » (٤ : ٢٠) ، أو إذا رغبت هى فى الطلاق لغير

إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة . . . الآية » (٤ : ٢٤) . وإعلان الزواج واجب ، فقد ورد أنه يجب أن يعقد فى حفل عام وأن يضرب عليه بالدف . « أعلنوا هذا الزواج واجعلوه فى المساجد واضربوا عليه بالدفوف » (م ش ١٣ : ٣) ويجب كذلك أن تقام وليمة عند حضور العروس إلى بيت الزوجية قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف « أولم ولو بشاة » (ب ٦٧ : ٧٢)

وقد أحل الطلاق، ولكن بغض فيه فى الوقت نفسه : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » (ا د . ١٣ : ٣) ، ولذا فيجب ألا يقع إلا فى ظروف خاصة توجبه ، وإذا ماشجر الخلاف بين الزوجين ، وجب العمل على إزالة أسبابه ببعث حكمين لإصلاح ذات البين : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً » (٤ : ٣٥) ولا يجوز أن يتم الطلاق إلا بعد أن تفشل كل مساعى الصلح بين الزوجين : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير . . . . الآية » (٤ : ١٢٨) ، « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيما » (٤ : ١٣٠) ، وقد تستطيع المرأة أن تحصل على الطلاق

بامرأة إلا مع ذى محرم » (٦٧ : ١١٢) ، ولهذا السبب أيضاً منع الاختلاط التام بين الجنسين ، وللمرأة مطلق الحريه أن تخرج من البيت لقضاء حوائجها ، وليس فى هذا المنع أى عزلة للمرأة ، وعند ماتغادر البيت فإنه عليها أن تكون فى ملابس محتشمة ، فلا تتبرج ولا تكشف عن عورة كالصدر مثلا : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها . . . . الآية » (٢٤ : ٣٠) ، ولبس الجلابيب ورد فى القرآن لهذا الغرض : « يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن . . . الآية » (٣٣ : ٥٩) ، وقد حرم النظام الإسلامى الاجتماعى التبرج وإبداء المفاتن بحالة تحرك من عواطف الجنس الآخر ، أما خـــروج النساء لقضاء حوائجهن فليس محرماً ، والنقاب أى تغطية الوجه ليس مطلوباً فى الإسلام . فقد قيل إن النساء كن يخرجن لصلاة الجماعة فى المساجد دون نقاب ، وتمنع النساء من وضع النقاب وهن يؤدين فريضة الحج ، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى فتاه لم تكن فى زى محتشم عن إبداء أى جزء من جسمها غير يديها ووجهها .

جرم جناه الزوج ، والطلاق لا ينطق به إلا مرة واحدة ، أما النطق به ثلاثاً فى المناسبة الواحدة فليس من الإسلام فى شىء (ن س ٦:٢٧) .

وحض الإسلام بنوع خاص على حسن معاملة الزوجة ، وعلى الرفق بها والحنو عليها : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » (٢ : ٢٢٩) ، أى أن الشفقة واجبة حتى بالمطلقة ، وورد أن العطف على الزوجة واجب على الرجل ، حتى ولو كان لا يحب زوجه : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » ، والمعاملة الطيبة للزوجة دليل على نبل الرجل وفضله : « خياركم خياركم لنسائهم » ؛ « خيركم خيركم لأهله » (م : ١٣) ، وقال النبى عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع فى حجيج مكة : « اتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله » (م ١٥ : ١٩) .

ويتوقف كثير من سعادة البيت على عزلته ، ودخول البيوت من غير إذن محرم تحريماً : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » (٢٤ : ٢٧) ، ويعتبر البيت من الداخل حرما مقدساً لا يقتحم إلا بإذن ، ووضع ستر على الأبواب يقى أهل البيت شر العيون المتطلعة ، وهو ما يقال له الحجاب ، وليس إلا اسما آخر لعزلة البيت واعتكافه . ولتوثيق عرى الروابط ورد أن الزوجة يجب ألا تجلس إلى رجل فى خلوة إلا إذا كان هناك أحد محارمها أى أقاربها الأدنين : « لا يخلو رجل

الرأسمالية ـ تجاوز الحكومة الفاشية ، فهى تعمل إلى أقصى حد على تطبيق النظرية الفاشية، فتسلب الإنسان كلا من حريته وماله ، أما الديموقراطية فإن دعاواها كنظرية ترن فى الآذان رنيناً حلواً . إلا أنها عندما تطبق عملياً تصبح شراً من أختيها الصغيرتين . فهى تستعبد مستترة بأسماء مختلفة أكثر من نصف الجنس البشرى بغير ذنب إلا ضعفه .

فكل هذا الفهم الجديد للحكومة هو النتيجة الطبيعية لخط سير مدنية الغرب المادية . فالمغانم المادية خنقت آراء العالم المتحضر التى أنزلها الله والدين وألقت بها فى زوايا النسيان .

ولم تهمل القيم العليا للحياة فى روسيا فقط حيث أصبح الإلحاد دين الدولة أو فى ألمانيا حيث صار الفوهرر نصف إله . ولكنها أهملت فى جميع الأقطار التى ما زالت تنتمى بالاسم إلى المسيح والمسيحية . وقد لا تكون الحكومات الغربية متفقة فى تصريحاتها الشفوية فى المسألة التى تتعلق بقوة الله العظمى ، ولكن العجيب أنها كلها تتفق فى عبادة الإلهين الجديدين اللذين خلقتهما المدنية المادية عوضاً عن الإله الواحد العظيم ، فنبذته على أنه أثر من الآثار البائدة . فالوطن والحكومة هما الصنمان الجديدان اللذان خر لهما الإنسان المتحضر ساجداً . وأصبحت الأقانيم للمال ذلك الإله القديم ـ وربما كان أقدم الآلهة الحية ـ بدلا من الكنيسة . إن كسب الغنم الاقتصادى أو الحصول على الثروة

الفصل الرابع

الحكومة

ما قامت الحكومات إلا لتكفل الحرية والعدالة للانسان ولتحميه من عاديات جيرانه الذين يفوقونه قوة وبأساً. وكلما تقدمت المدنية المادية اتجهت إلى أن تسلب الإنسان حريته وتجعل منه عبداً ، فأصبحت أداة عدوان عليه بدلا من أن تكون درعاً واقية له . وأوجدت المدنية المادية ثلاثة أنواع من الحكومات ، الحكومات الديموقراطية ، والحكومات الفاشية ، والحكومات البلشفية ، فالحكومة الفاشية تخبرنا فى كلمات واضحة أن الحكومة هى الكل فى الكل وما الفرد فيها إلا عبدا يعمل وفق مشيئتها ، والزعماء الفاشيون مخلصون على الأقل ، ولو أنهم يخطئون ولا شك حين يقولون (إن العقيدة التى تكفل لشخصية الفرد الحرية والرفعة لا تستطيع أن تجلب غير الخراب) أو حين يقولون (الإنسان حر فقط فى حيز المجموع . فالمجموع وحده يستطيع أن يكون هيئة حاكمة لا تقر المراقبة والمباحثة) .

والحكومة البلشفية - التى يمكن تسميتها بحق الحكومة

المكتسب في بسط سيادتهم على الدول الأخرى ، لكسب مغانم مادية واقتصادية لدولهم . فغزو البلاد الأجنبية التي تستطيع الدفاع عن أنفسها أصبح واجباً عليهم ، والانقضاض عليها انقضاض الصاعقة من السماء ، حتى لا تملك لنفسها مقاومة أو دفاعاً أصبح مهمة محببة إلى نفوسهم ؛ فالاعتداء هو طابع الحكومة المتحضرة ، ولا حق للضعيف ، لأن الحق في جانب أصحاب القوة والسلطان ، الذين يستطيعون فرض احترامهم وتقديرهم على غيرهم ، فإذا لم تقدم الدولة الضعيفة المجاورة لهم فروض الطاعة والولاء فقد تمسح من الوجود في أية لحظة ، لقد تغلغلت هذه الروح في كل دول الغرب ، ولذا فإن كل حكومة فيها تسعى لأن تفوق غيرها في عدد الجيش وفي وفرة السلاح ، فالنتيجة الحتمية قتال مميت بين الحكومات المختلفة ، ورغبة ملحة في قضاء كل منها على الأخرى . وتقع المسئولية كلها عن هذه الحالة على عاتق وجهة النظر المادية للحكومات .

ويجب أن تتزود كل حكومة بوسائل القوة حتى تستطيع وقف الظلم والطغيان وحماية الضعيف ونشر لواء العدل بين الجميع ، وقد زاد تقدم العلم من هذه القوة ألف ألف مرة ، ولكن النظرة المادية إلى الحياة — من الناحية الأخرى — سلبت الإنسان مبدأه فأصبح لا ضمير له ، فاستعمل القوة مع أخيه الإنسان ، وبتقدم وسائل التغلب على الطبيعة ضعفت وسائل التغلب على النفس وهي الدرع الواقية الوحيدة من ظلم الإنسان للإنسان ، وأقواها ظهرياً ،

أصبح الاعتبار الأوحد فى نظر الرجل المتحضر ، وهو مستعد لأن يقوم بأية تضحية تطلب منه للحصول على هذه الغاية باسم الحكومة وباسم الوطن. فالثروة والوطن والحكومة لها أسمى مكانة فى قلب الرجل المتحضر، فهو يعبد هذه الأصنام. إن الرغبة فى الركوع غريزة فى الطبيعة البشرية فإذا لم يركع الناس للخالق العظيم ، فلا مناص لهم من الركوع لأشياء من صنع أيديهم. وقد قادت عبادة الآلهة التافهة البشرية للخراب على الدوام ، وإن عبادة المال وصحبيه الوطن والحكومة وهى صنم المادية الذى يسجد له اليوم ، لتقود المدنية إلى خراب محقق.

كان الغرض من الحكومه أن توقف اضطهاد الناس للناس ، وأن تحمى الضعيف من القوى وأن تقر العدالة بين الناس ، ولكن أنى نجد الحكومة المتحضرة ؟ فالحكومة فى الغرب سواء أكانت ديموقراطية أو فاشية أو بلشفية تقدم على نشر الظلم واضطهاد الضعفاء الذين لا يقدرون على حماية أنفسهم ، فليس مكيافلى وحده هو الذى ليس « لاعتبار العدل أو الظلم » عنده وزن أو قيمة ، « وكل شبهة فى رأيه يجب أن تطرح جانباً إذا كانت المسألة تتعلق بالحكومة » فإن هؤلاء الذين أعدموه ما زالوا يترسمون خطاه إلى اليوم ، بل هم فى الواقع قد فاقوه ، فواجبهم نشر سلطان الحكومة لا حمايتها فقط ، فهم يعتقدون أنهم ماداموا يملكون ذهب العالم ، وما دامت القوة فى أيديهم ، والقنابل فى حوزتهم . فإن لهم الحق

تمكن الإنسان من السيطرة على القوى التى تمده بها السلطة الدنيوية وبغير القوة الروحية تكون السلطة الدنيوية فى خطر ويسوء حالها ، وقد بلغت الإدارة الحكومية الإسلامية فى صدر الإسلام وهى التى جمعت بين القوة الروحية والدنيوية حداً من الكمال لم نر مثله فى تاريخ الحكومات وكان رئيس الحكومة يعتبر نفسه مسئولا أمام الله أولا ، أما مسئوليته أمام من اختاروه عنهم فكانت فى المرتبة الثانية .

وقد أساء البعض فهم الحكومة الإسلامية ، فقال عنها إنها حكومة دينية رؤساؤها هم رؤساء الدين ، فإن رؤساءها لم يعتبروا أنفسهم فى يوم من الأيام ممثلى الله فى الأرض ، ولكنهم ممثلو من ولوهم عنهم ، ولو أنه من المحقق أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم مسئولين أمام الله عن كل ما يعملونه فى شأن سلطتهم ، وقد لا يستطيع التاريخ أن يقدم فاتحاً أعظم من عمر الخليفة الثانى للنبى عليه الصلاة والسلام فقد كان فاتحاً وإدارياً فى نفس الوقت ، وقد حدث أن قال له أحد رعاياه الفقراء « اتق الله يا عمر » وأخذ يرددها ، فلما أراد بعضهم أن يسكت الرجل ، وأن يوقفه عند حده اعترضهم عمر وقال « دعوه يقول قوله ، فلا خير فى الناس إن لم يقولوا مثل هذا القول » وخرج يوماً هذا الحاكم على أربع ممالك يتفقد أحوال الرعية ليلا وهو متنكر ، فمر ببقعة أضرها القحط ، فرأى امرأة ليس عندها ما تقدمه لصغارها . فقفل عائداً إلى

فأصبحت النتيجة أن قوات الحكومة المتزايدة التي كان عليها أن تعمل لخير الأفراد أضحت تستخدم في استرقاق الناس وإيقاع الظلم بهم أكثر مما تستخدم لإنقاذهم من الظلم ونشر الحق والعدل بينهم ، وقد لوحظ أنه بينما يمد العلم الإنسان القوى بالقوى التي تجعله في مصاف الآلهة فإن الإنسان المتحضر لايتزود إلا بعقلية البرابرة والمتوحشين ، وبدلا من أن تكون الحكومة النبع الذي تصدر عنه سعادة البشر ـ وهو عين الغرض من إقامتها ـ أضحت أخطر مصدر يهدد هذه السعادة ، والإنسان باستكانته لهذا الصنم طوعا أو كرهاً يعمل آلياً على تحطيم الإنسانية والقضاء عليها .

والعلاج الذي يقدمه الإسلام لهذا الداء ، هو وضع السلطه الحكومية في يد رجال يخافون الله ويخشونه ، وكان الأمير أو الإمام رأس الحكومة في الإسلام ، وكانت له المكانة المثالية السامية ، وقد ألمح النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو في مرض الموت إلى من يخلفه في تولى أمور المسلمين باختيار أبي بكر الصديق لأن يؤم الناس في الصلاة عند غيابه عليه الصلاة والسلام ، واستمر الحال على ذلك مدة طويلة كان فيها رئيس الحكومة إمام الناس عند الصلاة ، وكان إحقاق الحق والخشية من الله سبحانه وتعالى ورعاية حقوق الناس أهم الصفات اللازمة للحاكم الذي يتولى أمور الناس ، فالقوة الروحية وحدها هي التي

فالإمام الذى على الناس راع ومسئول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته ومسئول عن رعيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسئولة عن رعيتها وعبد الرجل راع على مال سيده ومسئول عنه .

فمن ذلك نرى أن رئيس الحكومة وكل من يملكون السلطان على غيرهم ، وضعوا والعبد فى درجة واحدة ومرتبة متساوية ، فكما أن العبد الذى اؤتمن على مال سيده مسئول عنه فكذلك هؤلاء الذين يعملون فى الحكومة أيا كانوا ، والذين اؤتمنوا على شئون الناس ورعاية حقوقهم ، وتخفيف قسوة الواجبات عنهم ، مسئولون أمام سيدهم الحقيق ، أمام الله سبحانه وتعالى أولا ، ثم أمام الناس الذين يلون أمورهم ثانياً .

وإن أول ما تحتاجه الإدارة الحكومية الرشيدة هو الفهم الصحيح لكل صغيرة من صغائر الأداة الحكومية ، وهو عين ما أدركه الإدراك الإسلامى للحكومة . ويتضح من الحديث والآيات سالفة الذكر أن وراثة الحكم كانت غريبة على إدراك الإسلام للحكومة ، وأن الحكومة لم تكن استبدادية لأن السلطة المطلقة لم توضع فى يد رئيسها ، ويقول القرآن الكريم إذ يذكر صفات المسلمين العظمى وثقتهم بالله واعتمادهم عليه وتركهم لكبائر الإثم والفواحش وتسامحهم ومحافظتهم على صلواتهم « وأمرهم شورى بينهم » (٤٢ : ٣٨) والشورى واجبة حتى أن

المدينة وكانت تبعد عنه حوالى ثلاثة أميال وأحضر كيساً من الدقيق حمله على ظهره لتأكل المرأة وأولادها ؛ وقد قال لرفيق له تطوع يريد حمل كيس الدقيق عنه « أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ! لا أم لك » وقال وهو على فراش الموت لرجل كان يذكر فضائله ويعدد مناقبه « أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، فإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر إنى لسعيد » . وبمثل هذه الحالة العقلية وحدها يستطيع الرجال أن يسوسوا إخوانهم ، ولا تتكون مثل هذه العقلية إلا بالإيمان العميق فى الله ، وبالشعور بالمسئولية أمامه سبحانه وتعالى .

وهذا النوع من الحكومات المسئولة هو الذى أوجده الإسلام ، حكومات يتولاها رجال يوقنون أنهم قبل أى اعتبار آخر مسئولون أمام الله عن كل ما يعملونه ، ولا يكرَّم من الرجال إلا من كانوا يولون واجباتهم الدينية جل اهتمامهم - وإسناد أمر الحكم إلى رجل تكريم له ولا ريب - « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٤٩ : ١٢) ومثل هؤلاء الأتقياء هم الجديرون بتولى أمور الناس « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . . الآية » (٤ : ٥٨)

وقد أخبر كل شخص فى الإدارة الحكومية وكل إليه أمر الناس أنه راع فى محيطه الخاص به ، وأنه مسئول أمام الله عن هؤلاء الذين ولى أمرهم « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

الإمام غير العادل يعتبر جهاداً مشكوراً ، « أفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان جائر » (المشكاه ١٧) والعمل على نزع السلطة منه أو الثورة عليه غير مسموح به « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان » (ب ٩٣ : ٢) ويجوز خلع الخليفة في مثل هذه الحالة ، وكان رئيس الحكومة خادما لها ، يأخذ أجراً معيناً من بيت المال كغيره من الخدم العموميين ، وليس له امتيازات خاصة ، ويمكن أن ترفع عليه الدعوى في المحاكم كأي فرد من أفراد الهيئة الاسلامية ، فقد وقف أمير المؤمنين عمر يوماً مدافعاً عن حكمه أمام القضاء . وكان من بين أوامره لولاته على الأقاليم أن يكونوا في كل ساعات النهار لينظروا في شكاوى الناس وأن لايجعلوا على أبوابهم حجاباً قد يمنعون الناس من الدخول عليهم ، وأن يروضوا أنفسهم على أن يحيوا حياة قاسية خشنة ، وكان رئيس الحكومة يقوم بأعبائها بمعاونة الوزراء ، وكان الأمر شورى بينهم .

ويطلب ممن يتولون شئون الحكومة بما فيهم رئيسها أن يعملوا لصالح الناس « ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة » (ب ٩٤ : ٨) .

وأن يعاملوا الناس برفق ، حتى ينعموا بالإدارة الحكومية الحسنة ، وألا يعملوا شيئاً قد ينفر الناس منهم ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره

النبي نفسه صدر إليه الأمر بمشاورة أصحابه فى الأمر « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » (٣: ١٥٨) فالحكومة الإسلامية إذن حكومة ديموقراطية بكل ما فى الكلمة من معان .

كان أبو بكر الصديق أول خليفة للنبي عليه الصلاة والسلام وقد بايعه الجميع ، ثم جاء بعده الخلفاء الراشدون الثلاثة وقد أوضح أبو بكر رضى الله عنه فى أول خطبة له، الغرض من الحكومة ، والمركز الدستورى للحاكم .

« أما بعد ، أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » .

وواجب الناس نحو الحكومة هو أن يحترموا قوانينها ويطيعوا أوامرها ، حتى لا يتهموا بعدم إطاعة الله ورسوله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، ويجب ألا تطاع أوامر الحكومة إذا كانت تحض على عدم إطاعة الله « لا طاعة فى معصية إنما الطاعة فى المعروف » (ب ٥٦ : ١٠٨) وقول الحق فى حضرة

عن كيانهم فقط « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (٢ : ١٩٠) وفى حالة أخرى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » (٢٢:٣٩).

وهذا لا يدع أدنى ريب فى أن الإسلام لا يقر حرب العدوان ولا يقر الفتح لبسط السلطان ولا الحرب من أجل النفوذ والاستعمار ولكنه فقط يقر الحرب عندما يقع الاعتداء على الدولة ، وحتى فى هذه الحالة ، إذا عرض العدو السلام وجب أن يقف القتال وأن يحل السلام ، وقد حارب أعداء الإسلام الدولة الاسلامية بقصد القضاء عليها وإبادتها ، « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » (٢ : ٢١٧) ومع ذلك فلو عرض مثل هذا العدو الصلح ، لما وسع الدولة الإسلامية أن ترفضه « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير » . (٨ : ٣٩) وقد يكون طلب الصلح غير مخلص ، فقد يكون لكسب الوقت استعداداً لحرب أخرى ، ومع ذلك فالسلام عندئذ يجب أن يفضل على القتال « وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » (٨ : ٤٠) فإيمان المسلم بالله ضمين له بأن العدو إذا ما أعلن حرباً أخرى فسيقاتله المسلم ثانية حين يطلب السلام من جديد .

وحرب كهذه كانت رحمة ، رحمة فى بدايتها ، لأنها لم تقم إلا للدفاع عن النفس - لسلامة الإنسان من الاعتداء عليه بقصد

قال « بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا » (ب ٦٤ : ٦٢) وأن يحيوا حياة بسيطة لا ترف فيها ولا زخرف وأن يكونوا قريبين ممن يحتاج إلى معاونتهم ، « من ولاه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » (المشكاة ١٧ : ١) وأن يتقوا الله ويخشوه « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر » (ب ٩٤ : ١٦)

وأن يجبوا الجباية من الطبقات المختلفة من الناس كل حسب مقدرته، وألا يأخذوا ممن لا يقدر على الكسب وأن يرعوا حقوق غير المسلمين رعايتهم لحقوق المسلمين (ب ٦٢ : ٨) وليس المطلوب من الحكومة أن توجه عنايتها إلى الأسر المنسية فقط ولكن المطلوب منها أيضاً أن تدفع الديون عمن لا يستطيعون السداد ، إذا ما كان الاستقراض لحاجة ملحة مشروعة ، (ب ٤٣ : ١١) .

أما من وجهة علاقة الحكومة بالحكومات الأخرى فى حالتى الحرب والسلم ، فإن شعار الحكومة الإسلامية هو «حرب دفاعية» و « سلم كريم » ولما كانت الحرب أمراً ضروريا للبشر ، فإن قاعدتها قد وضعت فى الإسلام بكلمات واضحة وهى ألا تكون حرب عدوان ، ولم يسمح للمسلمين أن يقاتلوا إلا فى حالة الدفاع

ومع ذلك فإنه عندما حل يوم القصاص من هؤلاء المعتدين القساة الذين أصبحوا تحت رحمة النبي الكريم وصحبه المؤمنين عندما فتحت لهم مكة ، حياهم النبي برسالة المحبة فقال « لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » وقد غيرت هذه المعاملة الكريمة من قلوب هؤلاء الأعداء المتعطشين للدماء فأصبحوا أصدقاء أوفياء ، وإن العالم لينشد اليوم مثل هذا السلام الذى لا تأتى به إلا حكومة تقوم على قواعد الإسلام الثابتة .

وهناك سوء فهم كبير لحقيقة الجهاد ، أحد الواجبات الأساسية على المسلم ؛ فالجهاد لغوياً معناه بذل قوى الإنسان لدفع العدو أو مقاومة الأمر المستهجن ، ويطلق فى الاصطلاح الإسلامى على كلا المعنيين ، فهو يدعو المسلم إلى تنقية واجباته الدينية من الشوائب ، ويدعوه للدفاع عن إيمانه وعقيدته بالقوة ، والواجب الأول هو واجب دعوة الناس إلى الإسلام . وهو واجب حتمى على كل مسلم فى كل عصر وفى كل زمان ، والواجب الثانى هو ماقد يقوم بعد ذلك على ظروف وملابسات خاصة ، ويدعو القرآن الكريم والحديث الشريف إلى هذين الواجبين فى أوضح بيان وأقوى كلام ، وقد كلف المسلم أن يجاهد بالقرآن الكريم المشركين جهاداً كبيراً « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا » (٢٥ : ٥٢) ومن ذلك يتضح أن الجهاد الكبير ليس بالسيف ولكن « بالقرآن الكريم » ، بالعمل على نشر رسالة

إبادته — ورحمة فى نهايتها ، لأنها يجب أن تقف بمجرد أن يطلب العدو الصلح . فالسلامة من العدوان غرضها ، لا إبادة المعتدى والقضاء عليه . كانت رحمة على غير المحاربين الذين هم فى الحروب الحديثة ضحايا ظلمها أكثر من المحاربين أنفسهم ، فقد كان هناك نهى شديد عن قتل غير المحاربين قال رسول الله « انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلا ولا صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا فإن الله يحب المحسنين » (ب ٥٦ : ١٤٧) وحتى هؤلاء المعتدون لا تجب إبادتهم لأن إبادتهم ليست الوسيلة الوحيدة لوقف العدوان ، فقد ثبت على مر الأيام أن الصلح الكريم أصوب كثيراً من الإبادة ، فمحاولة إبادة قوم ليست إلا تأجيجاً لنار الحقد والانتقام بينهم ، بينما قد ينجح الصلح الكريم فى تغيير النفوس وتنقية القلوب من أدرانها . ولهذا كان الإسلام لا ينبذ أى عرض للصلح يعرض عليه حتى ولو كان من المعتدين .

وبهذه الروح الكريمة عامل النبي صلى الله عليه وسلم أعداءه الذين ساموه — وتلك الحفنة من الصحابة المؤمنين — العذاب ألواناً مدة إحدى وعشرين سنة ، والذين بعد أن هاجر وصحبه من موطنه إلى المدينة حيث استتب له الأمن ، هاجموه فى موطنه الجديد ، هاجموه ثلاث مرات بقوات كبيرة رغبة منهم فى القضاء على تلك الفئة الصغيرة من المسلمين التى وجدت لها مأوى هناك ،

الإسلام إلى الشعوب كافة ، وقد جاء أيضاً أنه يجب أن يكون بين المسلمين فئة تدعو الناس إلى الإسلام على الدوام « ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (٣ : ١٠٣)

والقتال مسموح به ولا ريب ، ولكنه فى حدود الدفاع عن النفس فقط ، أى ضد هؤلاء الذين يشرعون سيوفهم بقصد القضاء على الإسلام ، كما بينا . ولا يمكن استعمال السيف أو أى وسائل القوة الأخرى لفرض الإسلام على الناس ، لأن الإكراه فى الدين محرّم « لا إكراه فى الدين » (٢ : ٢٥٦) فليس هناك حادثة واحدة سجلت فى تاريخ النبى الكريم ، تدل على أنه أرسل جيشاً ليرغم الناس على الإسلام ، ولا أية حادثة فردية تزعم أنه أرغم أحداً على اعتناق الإسلام بحد السيف ، وفى صدد الحديث عن الحرب مع فارس فى خلافة عمر استشهد بقول عمر إذ يقول « لوددت أن بين السواد (العراق) وبين الجبل سدا لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم » . وحتى موير يعترف بأن « فكرة نشر الإسلام بشن حرب عامة لم تخطر قط ببال المسلمين » فإذا كانت هذه الفكرة لم تخطر ببال المسلمين فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وفى أيام الخلفاء الأولين ، فمن المؤكد أنها لا تمت للإسلام بصلة.